

ابن البار

نشأته ومشيخته وحياته العملية

لم يتعرض احد ممن ترجموا ابن البار لحياته الاسرية ، حياة والده ووالدته واخوته واقاربه ، وعلاقة هؤلاء بالترجمة واثرها في تنشئته . وامل السبب في هذا ان طريقة التأليف عن الافراد ، وكتابة التراجم لم تكن تعنى بهذه الناحية ، ناحية تأثير البيئة المنزلية في الطفل او الناشئ ، وبابراز اثرها في حياته . نعم ، كانت طريقة كتابة التراجم - ولا زالت - تذكر المشيخة التي تتلمذ عليها المترجم لما لها من اثر في حياته العقلية والثقافية . وهو ما سنجده في ترجمة ابن البار . اما والده فام يكتب عنه شيء اللهم الا ما كتبه هو عنه في مؤلفه « تكلمة الصلة » . ولم يشر ابن البار الى والدته بخير او شر . ولم يفعل ذلك احد من المؤرخين . وليس هذا غريبا ، فام تجر المادة ان يكتب المؤرخون شيئا عن الامهات - مجرد الامهات - عند ترجمة الافراد ، اللهم

الا اذا كانت الأم⁽¹⁾ قد قامت بدور سياسى او اجتماعى أو أدبى
 هام ذى اثر فى حياة الشعب أو الحياة الثقافية أو الادبية فلمكتف
 اذا بأنه كانت لابن الابار أم حنون عنيت به ككل الامهات ،
 قصرت مدة حياتها معه أو طالت ، اذ لم يذكر لنا شيئاً عنها .
 وابن الابار لا يصرح أو يلمح بذكر اخوة له أو اقارب ،
 ولا نريد هنا ان نستنبط ان عدم الذكر يفيد عدم الوجود ،
 ولكن نريد ان نصل الى حقيقة ، هى ان عدم الذكر لا يمكن من
 تكوين قضية ذات نتائج . وعلى هذا فليس فى استطاعتنا أن
 نقول كيف وبأية صورة أثرت علاقة ابن الابار باخوته واقاربه
 فى تكوينه ونشأته وصيرورته ما صار اليه علما وخلقا .

وهو يحدثنا عن أبيه⁽²⁾ عبد الله بن ابي بكر بن عبد الله

(1) مثل زينب ابنة الخليفة ابي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ،
 تزوجها ابن عمها ابو زيد بن ابي حفص بن عبد المؤمن ، وكانت أدبية
 عالمة بالتوحيد . وولادة بنت المستكفى ، وفاطمة بنت ابي القاسم عبد
 الرحمن بن محمد بن غالب القرطبى المعروفة بام الفتح وغيرهن (انظر تكملة
 الصلة ونفح الطيب الجزء الثانى من صفحة 489 الى صفحة 494 وكلها من نساء
 الاندلس الشهيرات) (2) الترجمة رقم 1441 صفحة 510 من كتاب (التكملة)
 الجزء الاول .

ابن عبد الرحمن بن احمد بن أبى بكر القضاعى ، ويقول : انه من أهل (1) أنده ، وانه سكن بلنسية بعد خروجه من أنده . ولا يذكر لنا متى كان القدوم الى بلنسية . ولكن الغالب أنه كان قبل مولد المترجم نفسه ، لان من تتلمذ عليهم الوالد - ممن سنذكرهم بعد - كانوا من علماء بلنسية . فاذا كان التتلمذ قبل الزواج او قبل مولد ابن الابار - وهو الغالب - صح استنباطنا أن قدوم الوالد الى بلنسية كان قبل سنة 595 هـ .

وكان يكنى ابا محمد ، لان المترجم نفسه - ابن الابار - اسمه محمد . وكانت العادة - ولا زالت - فى البلاد العربية ان يكنى الرجل باسم ابنه او اسم ابيه ، فيقال لعلى ' ابو الحسين او الحسن ' والحسن والحسين اسما ولدى على بن أبى طالب ، ويقال ليحيى مثلاً ' ابو زكريا ' لان زكريا (2) والد يحيى . وقد كان ابن الابار يكنى ' ابو عبد الله ' وعبد الله اسم ابيه .

ثم يذكر لنا ابن الابار الشيوخ الذين تتلمذ عليهم ابوه

(1) أندة مدينة من كور بلنسية ، ولد فيها والد ابن الابار ، وكانت من الحصون المتينة التى اعتمد عليها المسلمون فى الدفاع عن بلنسية ، وفى جبلها معدن الحديد (2) (يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى) الآية الكريمة .

فيقول : « أخذ القراءات عن الاستاذ ابي جعفر الحصار وأجاز له . وسمع (1) ابي من عبد الله بن لذه ، و ابي بكر بن قنترال ، و ابي عبد الله بن نسم ، و ابي على بن زلال . وصحب ابا محمد ابن سالم الزاهد المعروف بالسبطير » .

وهذا النوع من الدراسة ، دراسة القرآن والقراءات والحديث والعلوم هو ما كان شائعا مطلوباً مقصوداً في تلك العهود من تاريخ الاسلام . وكان هذا النوع الاساس الضروري لكل من يرغب في التوسع في العلم والتقدم في المعرفة ، والقدر الكافي لمن يريد ان يكون بصيراً بشئون دينه ودنياه .

وينريدها ابن البار تعريفاً بأبيه فيقول : « وكان رحمه الله . ولا ازكيه . مقبلاً على ما يعنيه ، شديد الانقباض ، بعيداً عن التهنيم ، حريصاً على التخاص » . وهذه صفات خلقية تعطينا فكرة عن اخلاق الوالد الفاضلة ، تلك الاخلاق التي نجدناها في المسلم الحق الذي لا يتطلم الى معرفة شئون الناس وكشف اخبارهم ، المسلم العف عن لذات الدنيا ومغرياتها وشواغلها ،

(1) الحديث والعلوم الدينية .

المرور عن ان تلهود عما هو فيه المتصف بالتذكر والتأمل والتدبر
في الحياة الآخرة ، المسلم الواثق من ان ما عند الله خير وابقى ،
فلا يتناف الى ذى سلطان او يتقرب الى ذى مكان ، أو يظهر
غير ما يبطن أو يتكلف معاملة الناس ، المسلم القنوع الذى لا تغريه
مناصب الدنيا ومباهجها ومظاهرها ، لانه يجد متعة وسعادة
في حياته الطبيعية العلمية الدينية الهادئة فيتخلص من الوظائف
العامة كالقضاء (1) والفتيا ، وكتابة العقود ، أو الكتابة للامراء
والسلاطين . وجماع القول ان اخلاق والد ابن الابرار اخلاق
رجل فاضل هادى ، شديد الاتصال بالله ، يعنيه من دينه واخراه
أكثر ما يعنيه من دنياه .

ويشير بعد ذلك ابن الابرار الى مكانة والده العلمية بما لا
يشعر بمبالغة او تحيز فيقول وكان « مقدما في حملة القرآن ،
كثير التلاوة له ، التهجد به ، صاحب ورد لا يكاد يهمله ، ذا كرا
للقراءات ، مشارك في حفظ المسائل ، آخذا فيما يستحسن من

(1) ممن تخلصوا من القضاء ، القاضى ابو علي الصدفى ، والقاضى عياض .
وقد كانت عادة فضلاء العلماء أن يستعفوا من القضاء صيانة لذمتهم ، وبعداً
عن مواطن الشبهات .

الادب معدلا (1) عند الاحكام. وكان القاضي ابو الحسن بن
واجب يستخلفه في الصلاة بمسجد السيدة من داخل بلنسية .
هذه صورة اخرى لوالد ابن الابار توضح لنا حقيقة علمه
وفضله وخلقه ، وتبين نوع العمل الذي كان يشغله في حياته ،
ومركزه العلمى والاجتماعى . ومنها نستطيع القول بان الوالد
لم يكن من قادة العلماء في بلنسية او صاحب مركز اجتماعى او
دينى ممتاز ، وانما كان رجلا فاضلا فحسب ، رجلا يسره ان
ينوب في امامة الناس - في الصلاة - عن امام المسجد الدائم ،
ويعتد بهذا ، وكان نصيبه من حفظ القرآن ومعرفة القراءات والحديث
وطرف من ادب (3) اللغة ، نصيبا لا بأس به ، نصيبا لم يرفعه الى
مستوى العلماء المدرسين او المؤلفين في عصره ، ولم يحطه الى
مستوى العامة غير ذى البصر بأمور الدين والدنيا .

(1) هكذا في الاصل والمراد ان احكامه عادة يقال عدلت القاضي اى
اعتبرت حكمه عادلا. (2) في صفحة 179 من الجزء الاول من (التكملة) نجد
الترجمة رقم 631 وهى لمحمد بن عمر بن محمد بن واجب ويكنى «ابا الحسن»
وفيها انه (3) من الطرف الادبية التى يرويها ابن الابار عن ابيه قوله :
سمعت والدى يقول : حضرت شيخنا ابا عبد الله بن نوح ، وقد زاره
بعض معارفه ، فسأله عن حاله ، وبالحق فى سؤاله ، فجعل ابو عبد الله يحمد =

ولقد ذكر لنا المقرئ في نفتح الطيب (1) نبذة عن الثقافة في
الاندلس وما كان عليه أهلها ، وذكر ، انهم أحرص الناس على
التميز في العلوم والفنون والعالم عندهم معظم من الخاصة
والعامة ، يشار اليه ويبحال عليه ، وينبه قدره وذكره عند الناس
ويكرم في جوار او ابتياع حاجة او ما اشبه ذلك ، . . . ولقد
كانت هذه الحال في البلاد الاسلامية - ولا زالت - الى عهد قريب
لاسيما في القرى والاماكن التي لم تفسدها الحضارة المادية .

ولم تكن لاهل الاندلس مدارس تعينهم على طلب العلم
كذلك التي نعرفها في العصر الحديث ، بل كانوا يقرءون
جميع العلوم في المساجد بأجرة . وكل العلوم لها عندهم حظ

== الله ، ويردد ذلك عليه ، ثم انشد متمثلا :

جرت عادة الناس أن يسألوا * عن الحال في كل خير وشر
فكل يقول بخير انما * وعند الحقيقة ضد الخبر
قال ابن البار : ومثل هذا للقاضي ابي بكر بن البيضاوي البغدادي . ونقلته
من خط القاضي ابي بكر بن العربي :

اذا سألتني عن حالتي * وحاولت عذرا فلم يمكن
أقول بخير ولكنه * كلام يدور على اللسان

وربك يعلم ما في الصدور * ر ، ويعلم خائنة الاعين

(1) صفحة 106 وما بعدها من الجزء الثاني طبعة دار المأمون .

واعتماد الا الفلسفة والتنجيم فان لهما حظا عظيما عند خواصهم
وقراءة القرآن بالسبع ، ورواية الحديث عندهم رفيعة . والفقه
رونق ووجاهة . ولا مذهب اهم الا مذهب مالك . وخواصهم
يحفظون من سائر المذاهب ما يباحثون به ، بمحاضر ملوكهم
ذوى الهمم فى العلوم . وسمة الفقيه عندهم جلية ، حتى ان
المسلمين كانوا يسمون الامير العظيم منهم الذى يريدون
تنويهه بالفقيه .

وعلم الاصول عندهم متوسط الحال ، والنحو عندهم فى
نهاية من علو الطبقة . وهم كثيرو البحث فيه ، وحفظ مذاهبه
كمذهب الفقه . وكل عالم فى اى علم لا يكون متمكنا من علم
النحو بحيث لا تخفى عليه الدقائق فليس عندهم بمستحق
التميز . وعلم الادب والمأثور من حفظ التاريخ والنظم والنثر
ومستطرفات الحكايات انبل علم عندهم . وبه يتقرب من مجالس
ملوكهم واعلاهم ومن لا يكون فيه أدب من علمائهم فهو غفل
مستثقل . والشعر عندهم له حظ عظيم ، والشعراء من ملوكهم
وجاهة . واهم عليهم حظ ووظائف .

في هذا الجو الثقافي الذي وصفناه نشأ والد ابن البار،
وأخذ منه بنصيبه، ووصل الى مستوى علماء عصره المثقفين المحترمين.

وكان لهذا التكوين العلمي والديني الذي وصل اليه والد
ابن البار اثر في عنايته العلمية والدينية بابنه، واشرافه على
تربيته. وهو اثر مباشر وغير مباشر. اما انه مباشر فدليلنا
عليه قول ابن البار نفسه عن ابيه: «توت عليه القرآن بقراءة
نافع مراراً، وسمعت منه اخباراً واشعاراً، واستظهرت عليه
كثيراً أيام اخذي عن الشيوخ، يمتحن بذلك حفظي. وناولني
جميع كتبه: وشاركته في اكثر من روى عنه.»

فهذا قول صريح يدل على اهتمام والد ابن البار بابنه
وتربيته، اذ كان يعلم ابنه في المنزل العلوم، او المواد الدراسية،
الاساسية الشائعة في ذلك الوقت، أعني القرآن وقراءته،
والاخبار والحديث والادب. كان يعلمه هذا ويمتحنه فيما
تعلمه بالمدرسة من الشيوخ. وای غاية مباشرة ننظر من الوالد
غير هذه؟ والوالد يقدم لابنه جميع كتبه. ومعنى هذا أن ابن
البار وصل من الحظرة والمكانة العلمية عند ابيه الدرجة التي

جعلته يعطيه⁽¹⁾ جميع كتبه. وليس المهم هنا هو مجرد اخذ الكتب وانما المهم ان الابن استطاع ان يقرأ ويفهم تلك الكتب جميعها او اكثرها، وان يجيز له مؤلف هذه الكتب او مدرسوها الاحياء روايتها وتدريسها. ولهذا يقول المترجم «وشاركته في اكثر من روى عنه» انه ليس من الصعب ان تؤكد ان درجة ابن الابار العلمية... كما نعرفه من ترجمته... وصلت الى المستوى الذي يسمح له بقراءة جميع كتب ابيه وفهمها، وانه كان جديراً بان تعطى اليه.

واما اثر الوالد غير المباشر فهو ما يقول عنه الربون من أن المجو العلمي والديني والخالقي، وللروح الثقافية التي تسود المنزل اثراً غير مباشر في تنشئة الطفل وتكوين ميوله. ومن حظ ابن الابار أن يكون له اب كهذا الذي وصفناه، اب فاضل - كما قلنا - ومثقف. ويظهر من نعمة الوصف الذي قدمه ابن الابار عن ابيه أنه كان محباً له، محترماً علمه وفضله وخلقه،

(1) أي يمكن ان نستنبط من هذا ان ابن الابار كان الابن الوحيد؟

او نستنبط انه كان اصلح اخوته علماً، فاستحق ان يعطيه أبوه جميع كتبه؟

يقدر فيه خصائصه الكريمة ، ويرى فيها معاني وقيما سامية ،
وكان متعلقا به ناهجا سبيله . وجميع هذه العلاقات التي نشأت
بين الابن وابيه تؤكد انه كان للاب اثر غير مباشر في تكوين
ابنه (1) ، أثر ايجابي جذب الابن نحو أبيه روحيا ، فتمثل
فيه نموذجا صالحا ، ومثلا راقيا يحتذى .

وقد مات الوالد بعد ان اكتمل الابن رجولته ونضجه ،
فقد كانت سنه اربعا وعشرين سنة عند ما توفي أبوه . وهو
يقول عنه « توفي ببلنسية وانا حينئذ بشعر بطليموس عند الظهر
من يوم الثلاثاء ، الخامس لشهر ربيع الاول سنة 619 . ودفن
لصلاة العصر من يوم الاربعاء بعده ، بمقبرة باب بيطاله .
وهو ابن ثمان واربعين سنة »

وبعد ، فنحن قد عرضنا الناحية من طفولة ابن البار - هي
تأثير البيئة الاسرية في سنواته الاولى ، دون ان نذكر شيئا عن

(1) نعم قد يكون الاب فاضلا عالما وينشأ الابن على خلاف ذلك
ولكننا نجد في مثل هذه الحال العلاقات بين الابن والاب قوية طيبة روحية
بل يحل محلها علاقات نفور وتنافس بين الابن والاب . ولا يبدو من
الابن شعور الاحترام والتقدير الذي نجده عند ابن البار .

ميلاده ، تاريخه وموضعه . ومصدرنا في تحقيق هذا هو المترجم
نفسه فهو (1) يقول : «مولدي عند صلاة الغداة من يوم الجمعة
في احد شهري ربيع سنة 595 هـ . . هكذا يقول ابن البار عن
مولده ، ولا يحاول ان يتحقق ، أو يحقق لنا ، أى الربيعين
عنى ابوه . وهو ترك غريب منه وإهمال . وكنا نتوقع أن
يهتم فيؤكد من شهر (2) ميلاده ، ويوفر علينا مؤنة التخمين
ومع هذا فالفرق الزمني لا أثر له في دراستنا هذا العالم وترجمته .
أما مكان مولده فقد تواترت الروايات على أنه كان
ببلنسية حيث كانت نشأته كذلك ، طفولة وغلوطة ورجولة ،
وكان عمله بعد ذلك .

ويظهر ان ابن البار كان ذكياً ، طلق اللسان ، بادي
النباهة منذ سنواته الاولى من طفولته ، وأنه استجاب لبدء
تعليمه القرائن . والعلم منذ سنته الثانية . ونحن نلجأ لهذا الفرض

(1) صفحة 510 من الجزء الثاني من (التكملة) (2) في دائرة المعارف
الإسلامية تحت اسم « ابن البار » يصرح الكاتب بأن مولده كان في ربيع
الثاني ، وكذلك يفعل الاستاذ نيكل Nykl في صفحة 332 من كتابه :

لنستطيع تفسير العبارة التي ذكرها ابن الأبار عن نفسه
وفهمها ، تلك العبارة هي :

« وكتب له (أى لأبيه) القاضي ⁽¹⁾ أبو بكر بن أبي جمرة
يجيز له ، ولى معه ، جميع روايته مرتين ، أحدهما في غرة
رجب عام 597 والثانية في منتصف ذي القعدة من العام
المذكور ، وأنا إذ ذاك ابن عامين وأشهر . نعم أن تفسير هذه
العبارة على ظاهرها يضطرنا إلى افتراض أن المترجم كان
من الوعي المدرسي والاستجابة العلمية والفهم في تلك السن التي
تمكنه من أن يبدأ في قراءة القرآن والعلم وأن يجاز له في
روايتهما . ولكن هذا الفرض لا يجد من طبيعة النمو البشري
العقلي والجسماني ما يؤيده . فكيف يستطيع طفل جاوز السنتين
أن يعي ويفهم من العلم والقرآن ما يباح به لعالم من العلماء أن
يجيزه روايتهما ؟ إن هذه المسألة تحتاج إلى إيضاح من التاريخ
والحوادث ، إيضاح يقرب إلى ذهن القارئ في عصرنا هذا

(1) هو من قضاة مرسية وعلمائها، تتلمذ عليه أبو سليمان داود بن

حوط الله انظر التكملة صفحة 63 من الجزء الأول .

تقليداً علمياً بعد به العهد ، ولا يعمل به الان الا قليلا في
بعض البلاد الاسلامية . فامذكروا اذا شيئاً عن الاجازة العلمية ،
معناها وطرقها ، وما يترتب عليها .

الاجازة مصدر اجاز يجيز اي جعل عملاً من الاعمال
جائزاً بعد ان لم يكن كذلك ، بان كان حراماً او مكروهاً .
وقد اخذت هذه الكلمة في تاريخ التعليم الاسلامي وفي تاريخ
التصوف معنى اصطلاحياً خاصاً . ففي باب التعليم الاسلامي
وتاريخه نجد ان دراسة الكتاب في المادة الواحدة تكون جزءاً
من منهج الدراسة ، فكان الطالب يتعلم على الاستاذ فيدرس
عليه - في مادة اللغة مثلاً - كتاباً او جزءاً من كتاب احياناً ،
ويطلب من استاذ ان يجيز تدريس هذا الكتاب او الجزء
الذي درسه عليه ، فيقبل الاستاذ ان يجيزه متى اقتنع بان
التلميذ قد درس هذا الكتاب دراسة اتقان وفهم ، تؤهله لان
يقوم بتعليمه غيره ، وفي هذه الحال يكتب له الاستاذ «اجازة»
تخول له رواية هذا الكتاب ، وتدرسه ، وربما سمع التلميذ من
استاذ قدرا من العلم او الحديث او الشعر دون ان يكتبه

فيطلب من استاذة ان يجيزه رواية هذا القدر عنه ، فيجيزه
الاستاذ كتابة او شفاهاً .

ونظام الاجازة هذا قديم في تاريخ التربية الاسلامية
فالقاسندي يحدثنا في صبح الاعشى تحت عنوان الاجازات
بالفتيا والتدريس والروايات وعروضات الكتب ونحوها ، ان
المادة قد جرت اذا تأهل بهض اهل العلم للفتيا او التدريس
ان يأذن له شيخه في ان يفتي ويدرس ، ويكتب له بذلك ...
وان المادة قد جرت ان بهض الطلبة اذا حفظ كتابا في الفقه ،
أو أصول الفقه أو النحو ، أو غير ذلك من الفنون ، يعرضه
على مشايخ العصر فيقطع الشيخ المعروض عليه ذلك الكتاب ،
ويختبره في مواضع . فان مضى فيها من غير تلعثم استدلل على
حفظه وكتب له مجيزاً (1)

(1) يمكننا تشبيه هذه الاجازات بالدبلومات التي تمنحها الان المعاهد
والجامعات الطلبة ، غير ان الدبلومات تمنح عادة بعد قضاء مدة من الزمن
بنجاح في الامتحان . اما الاجازة فليست مقيدة بزمن مخصوص ، وانما شرطها
اجادة فهم الكتاب او الكتب او المادة . وكما ان قيمة الدبلوم الان تتوقف
على شهرة الجامعة التي درس فيها الطالب ومنحته الدبلوم كذلك كانت
الحال مع الاجازة ، فان قيمتها كانت تتوقف على شهرة الشيخ الذي يمنح =

هكذا كانت الحال في جميع البلاد الاسلامية . وقد كان الطالب يستجيز من أساتذة العلم الذين لم يرههم كتابة اذا كان قد قرأ بعض كتبهم على غيرهم من العلماء ، واقنع مؤلف الكتاب بقدرة التلميذ على تعليمه غيره او صحة روايته . وقد توسع العلماء في منح الاجازات وسخّوا لدرجة انهم كانوا يمنحونها طالب الاجازة ، ومن يتلمذ عليه او ابنه ثقة منهم بقدرة طالب الاجازة ، هذا على الا يمنحها الا لمن يستحقها . من تتلمذ عليه ، او تكرّما له . وقد سمعوا كذلك في منحها الصغار من طلبة العلم او ابناء العلماء حتى قبل ان يراولوا تعلم العلم ثقة منهم بان آباءهم سيكونونهم التكوين العلمي الصالح الصحيح الذي يمكنهم من نقل رواية الكتاب سليمة صحيحة . وهذا ما حدث مع والد ابن البار وابن البار نفسه حين كتب لهما القاضي ابو بكر بن أبي جمرة مرتين يحيزا لهما رواية مؤلفاته .

«الاجازة» لذلك كان الطلبة يسافرون الى جهات بعيدة رجاء الحصول على اجازة من شيخ مشهور . وربما كتب الشيخ اجازته على الكتاب الذي يحيز تدريسه او روايته (راجع صفحة 188 من الجزء الاول من كتاب التربية في السودان للمؤلف)

وقد كانت « الاجازة » احيانا تقابل ما يشبه اباحة حقوق النقل او النشر ، الان ، فكان المستعجز يطلب من صاحب هذا الحق ان يبيع له - نقله تعليما الى غيره او روايته . يظهر هذا مما قاله ابن الخطيب في الاحاطة ⁽¹⁾ عند ما ترجم احمد ابن ابراهيم بن صفوان من اهل مالقة قال : « جمعت ديوان شعره ايام مقامي بمالقة عند توجيهي صحبة الركاب السلطاني . . . عام 744 هجرية ، وقدمت صدره خطبة ، وسميت الجزء بالدرر الفاخرة واللجج النادرة ، وطلبت ان يجيزني وولدي عبد الله رواية ذلك ، فكتب بخطه يظهر المجموعة ما نصه : الحمد لله مستحق الحمد . اجبت سؤال الفقيه الاجل الافضل ، السرى الماجد الاوحد الاحفل . الاديب البارع الطالع في افق المعرفة والنباهة ، والرفعة المكيمة والوجاهة ، بأبهى انطالم ، المصنف الحافظ العلامة ، الحائز في فنى النظم والنثر ، وأسلوبى الكتابة والشعر ، رتبة الرياسة والامامة ، محلى جيد العصر بتواليقه الباهرة الرواء ، ومحاسن بنيه الرائقة على منصة الاشادة

(1) صفحة 100 - 108 من الجزء الاول .

والانبياء ، ابي عبد الله بن الخطيب وصل الله ساعدته ، وحرس
مجاذته ، وسنى من الخير الوافر والصنيع الجميل الابرر قصده
وارادته ، وبلغه فى نجاه الاسعد ، وابنه الراقي بمحتده الفاضل ،
ومنشئه الاظهر محل الفرقه ، افضل ما يؤمل نحلته اياه من
المكرمات وافادته ، واجزت له ولابنه عبد الله المذكور ابقاهما
الله تعالى فى عزه سنية الخلال ، وعافية ممدودة الافياء وارفة
الظلال .. رواية جميع ما تقيده من الاوراق المكتتب على ظهر أول
ورقة منها من نظمي ونثري ، وما توليت انشاءه ، واعتمدت
بالارتجال والرواية اختياره وانتقائه ، أيام عجرى ، وجميع
مالى من تصنيف وتقييد ، ومقطوعة وقصيد ، وجميع ما احمله
عن اشياخي رضى الله عنهم من العلوم ، وفنون النشر والمنظوم ،
بأى وجه تأدى ذلك الى ، وصح حملى له ، وثبت اسناده لى
اجازة تامة فى ذلك كله عامة ، على سنن الاجازة الشرعى
وشرطها المأثور عن أهل الحديث المرعى والله ينفعنى واياهما .
بالعلم وحمله ، وينظمنا جميعا فى سلك حزبه المفلح وأهله ،
ويفيض علينا من انوار بركته وفضله . قال ذلك وكتبه بخط يده

الفانية العبد الفقير الى الله الغني به أحمد بن ابراهيم بن احمد
ابن صفوان، ختم الله تعالى نه بخير، حامداً لله تعالى ومطاعاً ومسالماً
على نبيه المصطفى الكريم، وعلى آله الطاهرين ذوى المنصب
العظيم، وصحابته البررة، اولى الاثرة والتقديم فى سادس ربيع
الآخر عام اربعة واربعين وسبعمائة، وحسبنا الله ونعم الوكيل.
ونعود الى تلمذة ابن الابار فنقول: انه لا بد ان يكون قد
تعلم اولاً على (1) والده الحريص على تربيته وتثقيفه وتلقيه
العلم، ثم تتلمذ على كثير من الشيوخ والعلماء. نجد هذا
صريحاً احياناً، واحياناً يذكر عرضاً فى تراجم بعض الرجال
فى مؤلفات ابن الابار. وقد ذكرت دائرة المعارف الاسلامية
بعض اساتذة المترجم، ومنهم ابو عبد الله بن نوح، وابو جعفر
الحصار، وأبو الخطاب بن واجب، وابو الحسن بن خيرة، وابو

(1) نفهم هذا مما ذكره المترجم - وأشرنا اليه فى الصفحات الماضية -
من ان والده أقرأه القرآن والقراءات والعلم، ومن ان القاضى ابا بكر
ابن ابى جمرة أجازهما معاً. وكان هو قد جاوز الثانية بأشهر. وكان علماً
المسلمين فى الماضى ولا زال بعض الابرار الان يلقنون أبناءهم مبادئ العلم
او القرآن او القراءة فى سن مبكرة واذكر ان جدى علمنى حروف الهجاء
وحفظنى الفاتحة قبل ذهابى الى «الكتاب».

سليمان بن حوط الله، وابو عبد الله محمد بن عبد العزيز بن سمادة
وابو الربيع بن سالم الكلاعي .

وفي التكملة (1) يذكر المؤلف عند ترجمته عبد الله بن
يوسف . . . بن فرغلوش انه كان من أهل بلنسية ويقول :
وكان صاحبنا (زميلنا في التلمذة) «روى معنا عن شيوخنا ابي
عبد الله بن نوح، وأبي الخطاب بن واجب، وأبي الحسن بن
خيرة، وأبي الربيع بن سالم وغيرهم .

وثمة شيوخ آخرون غير هؤلاء ورد ذكرهم عرضاً في (2)
مؤلفات ابن الأبار نذكر اسماءهم سرّداً أولاً ، ونعود فنبين ما
قرأه عليهم : محمد بن محمد بن عبد الله بن ابي زاهر المصنّف
حيان بن عبد الله بن محمد بن هاشم بن عبد الله . . بن
فرحون بن حيان الانصاري، عبد الله بن اليتيم الخطيب
نذير بن وهب بن لب ، ابو محمد بن غليون ، محمد بن محمد
ابن سليمان بن محمد بن عبد العزيز الانصاري النحوي، ابو محمد

(1) صفحة 519 من الجزء الثاني : الترجمة رقم 1455 (2) هؤلاء عشرت
على اسمائهم في المعجم، وتكملة الصلة، والحلة السيرة، واعتاب الكتاب.
ولعل هناك غيرهم في مؤلفاته التي لم اطلع عليها .

عبد الله بن محمد بن عبد الله... بن مطروح التجيبى، أبو عبد الله
محمد بن أيوب بن محمد بن وهب بن نوح الغافقى، محمد بن علي
ابن محمد بن علي بن هزبل، محمد بن إبراهيم بن مسلم البكرى،
محمد بن عبد الله بن محمد بن خاف بن قاسم (1) الانصارى.
وإذا عرفنا أن ابن الأبار ولد سنة 595 أمكن القول بأنه
كان في سنة 600 صالحاً لأن يذهب إلى المكتب، أو المسجد لتلقى
العلم وحفظ القرآن، أو لمنزل الشيخ معلمه، إذ كان بعض
الشيوخ يعلمون في منازلهم. ونحن حين نبتدىء بهذه السنة
(سنة ستمائة) يكون ابن الأبار في سن الخامسة وهى سن
مبكرة جداً للتأمل والتعلم الجدى الصحيح. ولكن لا بأس فى
هذا فقد كانت السن (2) المأوفة لبدء الذهاب إلى المدرسة (معهد

(1) ذكر ابن الأبار فى صفحة 537 من الجزء الثانى من التكملة
الترجمة رقم 1514 لعبد الله بن خليفة أهل البش عمل بطليموس، ثم قال
«وقيل فى ولايته شعر قد كتبه فى معجم مشيختى عن أبى الربيع بن سالم
وهو الذى أفادنيه» فهذا يدل على أن ابن الأبار كتب معجماً لمشيخته
ولم يصلنا. ولا بد قد فقد (2) راجع وفيات الأعيان، وفوات الوفيات
وحسن المحاضرة للسيوطى، وطبقات الشافعية والطبقات الصغرى والكبرى
للمعرائى، وطبقات درضيف الله السورائى تجد فيها ما يفيد التبكير بالتعلم

العلم والقرآن).

أما من أول أساتذته الذين حفظ عليهم القرآن ، وقرأه وتعلم منهم القراءات فنعرفه من اشارة ذكرها ابن البار نفسه عند ما ترجم ابا عبد الله محمد بن (1) ايوب بن محمد بن وهب ابن محمد بن وهب بن نوح الفافقي من اهل بلنسية . فقد قال عنه : « تاوت عليه القرآن بالسبع ، واجاز لي ، وسمعت منه بعد والدي - رحمه الله - ومعه » . فهذه عبارة صريحة تدل على أن ابن البار تعلم القرآن وقراءته السبع على هذا الشيخ حينما كان لا يزال يتعلم على ابيه ، وبعد ان ترك التلمذ على ابيه . ونحن قد فرضنا أن ابن البار - وهو فرض مبني على نص تاريخي - بدأ يتعلم القرآن والعلم على ابيه ، فيكون الشيخ محمد بن ايوب هذا من أوائل شيوخه في القرآن والقراءات . ويجدر بنا هنا ان نذكر شيئاً من ترجمة هذا الشيخ ، نقلاً عن رواية ابن البار نفسه ، لما في الترجمة لشيوخه من تقدير لمكانتهم العلمية ، وبيان لمستوى تحصيلهم وتفقههم

(1) الترجمة رقم 912 ، صفحة 297 من الجزء الاول من التكملة .

ونصيبهم فيما علموه .

كان الشيخ ابو عبد الله محمد بن ايوب بن نوح الغافقي من اهل بلنسية ، ودار سلفه سرقسطة . ويكنى ابا عبد الله . اخذ القراءات عن ابي الحسين ⁽¹⁾ بن هذيل وغيره وسمع منه ومن غيره من رواة الحديث . وكانت الدراية اغلب عليه من الرواية ، مع وفور حظه منها وميله فيها الى الاعلام المشاهير . دون اعتبار اعمال الاسانيد . وولى خطة الشورى في حياة شيوخه ، وزاحم كبارهم بالحفظ والتحصيل في صغره . ولم يكن في وقته بشرق الاندلس نظير له تفننا واستبحارا . كان رأسا في الراسخين من العلماء ، وصدرًا في المشاورين من الفقهاء . قد برع في علوم اللسان ، وتمرس حياته كلها بالمسائل ، وتقدم في الفتيا ، واطلع على الاداب ، واضطلع بالغريب ، وشارك في التفسير ، وتحقق بالقراءات ، واما عقد الشروط فاليه انتهت الرياسة فيه ، وبه اقتدى من بعده . . مع حسن الخط وبراعة الضبط ، وتدقيق

(1) راجع ترجمة رقم 1555 ، الصفحة رقم 550 من الجزء الثاني من تكملة الصلة .

النظر ، والامامة في المعارف ، والبصر بالحديث ، والحفظ
للانساب والاخبار ، والايضاح لما استغلق من معانى الاشعار
الجاهلية والاسلامية ، وله تنبيه في فنون شتى ، وتقييدات
شاملة النفع والافادة .

وكان كريم الخلق ⁽¹⁾ ، عظيم القدر ، سمحاً جواداً . ولى
قضاء بعض الكور النبيهة ، وخطب بجامع بلنسية وقتاً . ولم يحظ
بعلمه حظوة غيره ، مع غلبة السلامة عليه في اعلانه واسراره ،
واستغراق آناء ليله في تلاوة القرآن واطراف نهاره .

ويستمر ابن الابار ⁽²⁾ فيقول : « وبالجملة فلم يكن شيخنا
في باب المنثور والمنظوم ما يناسب براعته في افانين العلوم .
أقرأ القرآن ، وأسمع الحديث ، ودرس الفقه وعلوم العربية والاداب
وأخذ الناس عنه ، ورحلوا اليه ، وانتفخوا منه ، وسمع منه جلة

(1) جرت عادة ابن الابار - وغيره من مؤلفي الطبقات والتراجم -
أن يذكروا شيئاً عن اخلاق المترجم مما يشير الى اهتمامهم بالناحية الخلقية
في الترجمة ، ذلك لان العلم والنقل كانا صنوين في ذلك الوقت . ولكن
بعض مؤلفي الطبقات كابن فرحون يعنى في معظم تراجمه بالوصف
العلمي للمترجم . (2) راجع ترجمته في الجزء الاول من تكملة الصلة .

من شيوخنا واصحابنا (زملائه في التلمذة) وطال عمره حتى أخذ
عنه الالباء والابناء. وهو اغزر من لاقيت علماء، وابعدهم صيتا.
ولد أول وقت الظهر من يوم السبت الثاني من جمادى الآخرة
سنة 530 . وتوفي في أول وقت الظهر أيضا من يوم الاثنين
لست مضين من شوال سنة 608. وصلى عليه ابو الحسن بن خيرة.
وإذا فلم يكن الشيخ محمد بن ايوب يعلم القرآن والقراءات
فقط، بل كان استاذا عالما علامة بارعا في علوم الحديث والفقه
واللغة والآداب . وكان يؤمه الطلبة من انحاء البلاد ، وتولى
القضاء والشورى في الفقه . وتحرير العقود . ومع كل هذا العلم
والقدر ينص ابن البار على ان تلمذته عليه كانت في تلاوة
القرآن بالقراءات السبع .

وإذا عرفنا ان هذا الشيخ توفي في سنة 608 أي عند ما
كانت سن ابن البار ثلاث عشرة سنة ادركنا ان ابن البار
حفظ القرآن بالقراءات السبع وهو ابن ثلاث عشرة سنة او
دون ذلك. وليس هذا بغريب، ففي طبقات العلماء كثير (1) أمثاله

(1) ان القارىء لكتب الطبقات يجد أشباها لابن البار مثل السيوطي =

على ان تتلمذ ابن البار على الشيخ محمد بن ايوب هذا
لايعنى انه كان شيخه الوحيد⁽¹⁾ في طفولته فقد قال لنا ابن
البار انه تتلمذ عليه وتلمذ على ابيه ايضا (ابي ابن البار)
وهو يقول لنا كذلك انه أخذ قراءة نافع عن شيخ آخر هو محمد
ابن محمد بن عبد الله بن محمد بن ابي زاهر⁽²⁾ المكتب من اهل
بلنسية ويكنى أبا حامد. وهذا الشيخ من بيت علم وقرآن .
فقد كان والده يعلم القرآن والقراءات وعنه أخذه كما سمع
من ابي العطاء بن نذير وغيره من رواة الحديث وعلمائه، ويقول
عنه ابن البار انه أدب بالقرآن، وهو كان معلماً وعنه أخذت
قراءة نافع . وبه انتفعت في صفري ، وسمعت منه ، واجازلى .
وسمع منى كتاب (معدن المجين في مرائى الحسين) من تأليفى .
وكان امرأ صدق ، ناشئاً فى الصلاح ، محافظاً على الخير ،

= والزمخشري والجاحظ والغزالي والائمة الاربعة مالك وابى حنيفة
والشافعى وأحمد بن حنبل، وعبد الوهاب الشعرانى.

(1) كانت العادة ان يذهب الطفل الى اكثر من شيخ واحد اثناء تتلمذه.

(2) الترجمة رقم 1503 صفحة 343 من الجزء الاول من التكملة .

متواضعاً، يجمع الى جودة الضبط براءة الخط . . وصلى بالناس
الفريضة في مسجد رحبة القاضي من داخل بالنسبة دهرًا طويلاً.
ورحل الى الحج . وتوفي بعذاب سنة 633 هـ .

وإذا تذكرنا أن ابن الأبار قرأ القرآن على رواية نافع
مراراً على أبيه أدركنا أن الشيخ محمد بن زاهر المكتب هذا
شارك أباه في تعليمه هذه القراءة . والراجح عندى أن ابن
الأبار كان يتردد على هذا الشيخ قبل ذهابه الى الشيخ محمد بن
أيوب لتلاوة القرآن عليه بالسبع ، أو فعل ذلك في وقت واحد ،
اذ كيف يستطيع ابن الأبار تلاوة القرآن بالسبع قبل تمكنه
من قراءة نافع وهي إحدى هذه السبع ؟

وثمة شيء آخر جدير بالإشارة والتنبيه هو أن الشيخ
محمد بن زاهر المكتب ⁽¹⁾ لم يكن فى مكانة الشيخ ابن أيوب
العامة وشهرته . ولكنه مع ذلك كان ذا صلاح وتقوى خولاه
أن يؤم الناس فى صلاة الفريضة . ولا شك عندى أن لتقوى

(1) كان بعض الشيوخ ينصرفون الى تعليم القرآن وقراءاته فقط
ويشتهرون بذلك ويكفونهم لهم مدرسة معروفة فى تعليم القرآن والقراءات وقد
ظل هذا الى عهد قريب فى بعض البلاد الاسلامية .

الاستاذ وروحه الدينية أثراً غير مباشر في نفس تلميذه، يعتدى
حذوه ، ويتمثل فيه شخصيته المثالية .

أما قراءة ابن الأبار كتابه «معدن اللجين في مرآئى الحسين»
عليه فلم يحدد لها المؤلف تاريخاً . وهذا نتساءل أكانت القراءة
قراءة هذا الكتاب . في مرحلة الطفولة عند ما كان المؤلف
يتعلم منه قراءة نافع ، أم كانت في سن متأخرة بعد ان فرغ
المؤلف من تلمذته عليه في القرآن ، فذهب اليه يعرض مؤلفه؟
إذا كانت الاولى جاز لنا أن نستنبط أن هذه المرآئى قد ألفت
في سنوات ابن الأبار الاولى وفي طفولته ، وهو ما يدعو الى
الاعجاب ، وتقدير موهبة المؤلف . وجاز لنا أيضاً أن نتساءل:
أكان المؤلف من النضج العقلي والشعري أو النثرى بحيث
يؤلف مثل هذه المرآئى ؟ وإن كانت الثانية فالامر هين .

وممن قرأ عليهم ابن الأبار القرآن ابو الحسن علي بن
أحمد بن عبد الله بن محمد بن خيرة البلسى خطيب مسجدها،
وامام الصلاة . تقلد الامامة اربعين سنة فيها .

كان من مقرئى القرآن ، ومن رواة الحديث . وكان رجلاً

مجتهدا في طلب العلم بالاندلس والمشرق ، فقد اخذ قراءة ورش عن ابي جعفر طارق بن موسى ، ويقول ابن الابرار واخذ القراءات عن شيخنا ابي (1) جعفر بن عون الله ، وسمع من ابي العطاء بن نذير وغيره . ، وحج سنة 578 وجاور في بيت الله الحرام حيث تلقى العلم بمكة ، واخذ عن ابي حفص الميانشي فيها . ثم رجع الى بلده - بلنسية - واقام فيها على حال من الانقباض وحسن السمعة ، واقرأ القرآن وقتا ، وحدث ، واخذ الناس عنه ، وكان عدلا راجح العقل في مشيخته كثرة ، ويقول ابن الابرار : « وتلوت عليه بالقراءات السبع ، وسمعت منه جل ما عنده » . فهذا شيخ آخر تلا عليه ابن الابرار القرآن بالسبع ، كما تلاه من قبل على الشيخ محمد بن ابوب الغافقي . ولا يذكر لنا المترجم متى كانت هذه التلاوة ، وانما يقول : واختلط قبل موته بأزيد من عام ، وأخر عن الصلاة في

(1) من صفحة 681 الجزء الثاني من تكملة الصلة الترجمة رقم 1905 وقول ابن الابرار «شيخنا ابي جعفر بن عون الله» يدل على ان هذا الشيخ من ائمة القراءات . ولم اعثر له على ترجمة الا في كتاب نيكول المسمى Hispano - Arabic Poetry (الشعر العربي الاسباني)

رجب سنة 633 لاختلال ظهر في كلامه . وتوفي في اواخر
رجب سنة 634 . ونزل في قبره ابو الربيع بن سالم ، وحضر
جنازته السلطان . ومعنى هذا ان الشيخ ابن خيرة هذا كان من
المكانة والفضل بالدرجة التي جعلت السلطان يمشى في جنازته .
وممن سمع منهم ابن الابار الحديث وروى عنهم الشيخ
ابو الخطاب احمد ⁽¹⁾ بن محمد بن عمر بن محمد بن واجب بن عمر
ابن واجب بن عمر بن واجب القيسي . وهو محدث كبير
اشتهر في شرق الاندلس . ولد في بلنسية سنة 537 (42 - 1143م)
ومات في مراکش يوم الاثنين السادس من رجب
سنة 614 (اكتوبر 1219م) .

وقد قرأ ابن الابار على الشيخ ابي الخطاب هذا ، الحديث
والتاريخ . وذلك في سنة 609 ، ما قبلها وما بعدها ، وسجل
انا هذا في المعجم ⁽²⁾ عند ترجمته ابا الحسن جابر بن محمد الانصاري

(1) انظر ترجمته في صفحة 871 من الجزء الاول من نفع الطيب
طبعة اوربا *Analectes* و صفحة 5 من الجزء الثاني ، وكذلك الديباج المذهب
لابن فرحون صفحة 56 ، والترجمة رقم 274 من الجزء الاول من تكملة
الصلة نشر محمد بن شنب و بل . (2) صفحة 71 الترجمة رقم 61 .

فقال « وقرئ على ابي الخطاب القاضي وانا اسمع في سنة 609 » .
والشيخ ابي الخطاب هذا اثر علمي قوي واضح في حياة
ابن الابار العلمية والتأليفية . فتجده يسند اليه كثيرا من
روايات الحديث وروايات الاخبار ، يقرن اسمه تارة بلقب
« القاضي » ، وتارة اخرى بعبارة « شيخنا » ، ويقول : « وقرأته
عليه » أو « وسمعت منه » .

ويظهر ان ابن الابار لازم الشيخ القاضي المحدث المؤرخ
ابا الخطاب طويلا . ولازمه ملازمة عميقة جعلته قوي الثقة
بعلمه ، وشديد التعلق باستاذيته . ولم لا والشيخ ابو الخطاب
من بيت علم ، كان جده ابو حفص عمر بن محمد بن واجب
صاحب الاحكام في بالنسية ، فقيها ، حافظا للمسائل ، مفتيا ،
مشاركيا ، درس ونظر عليه في حياة ⁽¹⁾ ابيه وبعده ، حدث
وكان من حفاظ المسائل الفقهية . وقد اخذ عنه حفيده ابو
الخطاب شيخ ابن الابار .

(1) صفحة 655 من الجزء الثاني من التكملة ، الترجمة رقم 1824
وكان والد المترجم ايضا معلما وعالما .

اما والده المكنى ابا بكر محمد بن عمر بن محمد . . . فكان
من علماء بالنسبة ايضا ، تتلمذ على ابيه ، وتفقه به ، واخذ
القراءات عن ابي محمد بن سعدون الضريير . وولى القضاء
بعدة كور من بلده . وقدم للشورى والخطبة بالمسجد . وكان
دربا بالاحكام مقدا فيها ، معروفا ⁽¹⁾ بالمزاهة . وكان
يقال عنه انه أنه بنى واجب .

وابنه كان استاذ ابن الابرار وكان يلقب بابى الخطاب
كما ذكرنا . وكان يدرس الحديث بجامع بالنسبة لا فى النهار
فقط ولكن فى الليل ايضا وفى ضوء السراج بين العشائين ، ومن
بين تلاميذه فى هذا الدرس ابن ⁽²⁾ الابرار ، ويقول عنه صاحب
الديباج انه كان من اعظم الناس عناية بالرواية ، ولقاء الشيوخ .
اجاز له ابن العربى ، والسلفى وابن بشكوال وابن سعيد بن

(1) صفحة 152-252 من الجزء الاول من التكملة . وتوفى سنة 517

(الترجمة رقم 813) وانظر صفحة 56 من الديباج المذهب لابن فرحون
تجد فيه بعض رجال هذه الاسرة . (2) صفحة 355 من الجزء الاول من
التكملة . و صفحة 56 من الديباج . وتوفى سنة 614 هـ . وكذلك صفحة 84
من المعجم .

زرقون وابو عبد الرحيم بن القرس وابو يوسف بن سمادة
وابن حبيش وخلائق . وكان فاضلا ، كامل الاشتغال بعلم الحديث
حافظا له ، منسج الرواية ، حريصا على الافادة والاستفادة ،
وافر الحظ من علم العربية والادب والتاريخ والنسب ، منسج
الدين المتين . وكان شهير البيت ، رفيع القدر ، واستقضى
بشاطبة وبلمسية فحمدت فيهما سيرته وعرف بالعدالة ، وردع
المفسدين . ويقول ابن الابار ⁽¹⁾ انه قرأ تاريخ ابن الفرضي
وتاريخ ابن بشكوال كليهما على استاذة ابي الخطاب بن واجب .
ومن اساتذة ابن الابار الشهيرين القاضي ابو سليمان
داود بن سليمان بن داود بن عبد الرحمن بن سليمان بن عمر
ابن خلف بن عبد الله بن عبد الرؤوف بن حوط الله الانصارى
الحارثي . اصله من ائده - عمل بلمسية - ثم سكن مالقة .
وهو من بيت علم وفضل ايضا ، اخذ عن ابيه ، وعن اخيه
ابى محمد ⁽²⁾ عبد الله ، وتجول ببلاد الاندلس للسمع من

(1) انظر مقدمة « تكملة الصلة » التى نشرها بن شنب وبل .

(2) انظر ترجمته فى صفحة 142 من الديباج المذهب .

علمائها . والاخذ عن روايتها . أخذ عن ابي عبد الله بن نوح وغيره في بلنسية ، وعن ابي بكر بن مغاور في شاطبة ، وعن ابي القاسم بن حبش ، وابي بكر بن جمرة في مرسية ، وعن ابي القاسم بن بشكوال واكثر عنه في قرطبة وعن غيره بها كذلك ، وعن ابي عبد الله بن زرقون وابي محمد بن جهور في اشبيلية . ومن هذه الرحلات العلمية ، وعدد العلماء الذين لقيهم واخذ عنهم ندرك مقدار علمه ، وتبحره في فنون المعرفة . ويقول عنه ابن الابار : « وكان شديد العناية بالرواية ، وكانت اغلب عليه من الدراية فمال الى الجمع والاكتار ، واخذ عنه الكبار والصغار . وهو واخوه محمد كانا اوسع اهل الاندلس رواية في وقتهما لا ينازعان في ذلك ولا يدافعان ، مع الجلالة والعدالة » .

هذا وقد ولي ابن حوط (1) الله القضاء في عدد من كور اسبانيا ومدنها ، وليه في الجزيرة الخضراء ، ووليه في بلنسية (2)

(1) صفحة 63 من الجزء الاول من تكملة الصلة . الترجمة رقم 205 .

(2) بعد قاضيها ابي عبد الله بن اصبغ . وبقي بها الى سنة 611 ، حين صرف عنها بابي القاسم بن نوح ، فذهب الى قضاء مالقة .

سنة 608 هـ. وهنا نشأت العلاقة العلمية بينه وبين ابن الأبار ،
فقد اختلف اليه طالبا ، وسمع منه الحديث والفقه ، واجاز له
غير مرة رواية ما سمعه عنه او قرأه عليه . ويقول ابن الأبار:
« والف في اسماء شيوخه كتابا قرأته عليه بعد ما كتبه من خطه .
ونقلت منه هنا (اى فى تكلمة الصلاة) ما نسبته اليه . وهم
... اى شيوخه - يريدون على مائتى رجل ، ذكر ان معظم ما
اورده (فى معجم شيوخه) من حفظه » .

ولما كان ابن حوط الله قد اقام فى بلنسية ثلاث سنوات
فقط من سنة 608 الى سنة 611 فان تلمذة ابن الأبار عليه قد
اقتصرت على هذه المدة . ولكن يظهر ان التلميذ لازم استاذه
طويلا اثناء هذه المدة وافاد كثيرا بدليل انه ينسب اليه الكثير
من الروايات والأخبار والأشعار . من ذلك قوله فى الحلة (1)
السراء بعد ان ذكر البيتين :

يهز على الريح ظبي مهفوف ❀ لعوب بألأباب البرية عابث

(1) صفحة 165 من *Beitrage zur Geschichte der Westlichen*

Araber, herausgegeben von Marcus Joseph Müller

فلو كان رمحا واحداً لا تقبته ❀ ولكنه رمح وثنان وثالث
 « كذا قرأت في ديوان اشعارهم - أدام الله تأييد (1) امرهم
 - وهما عندي للقاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب بن
 عطية، انشد نيهما القاضي أبو سليمان داود بن سليمان بن
 حوط الله الانصارى الحارثى، بمدينة بلنسية وهو اذ ذاك يتولى
 قضاءها . . الخ » ومن ذلك ايضا قوله في المعجم (2) « حدثنا
 القاضي أبو سليمان بن حوط الله ببلنسية حدثنا الحافظ أبو القاسم
 بشكوال . . . »

« وحدثنا أبو سليمان بن حوط الله حدثنا أبو بكر محمد
 ابن عبد الرحمن الكتندى . . . »

« حدثنا القاضي أبو سليمان داود بن سليمان بن حوط الله
 الانصارى ثم الحارثى، وسمعت منه بمدينة بلنسية قال حدثنا
 أبو محمد عبد الله ابن الحجرى . . . »

« ومن حدثنا عنه . . وأبو سليمان بن حوط الله وأبو

(1) الإشارة قى اشعارهم وتأييدهم الى أمراء الاندلس . (2) صفحة

الخطاب المسمى آنفا . . . »

فهذه كلها ، وإمثلة غيرها كثيرة في التكملة والمعجم والحلة
السيرة تدل على مقدار اعتماد ابن الأبار العلمى على رواية
استاذة وتعلقه به .

ولم يكن لابن حوط الله تأثيره العلمى فقط بل أثر فيه
تأثيرا خلقيا غير مباشر تأثير الاستاذ المحبوب المحترم فى نفس
تلميذه . وهو يقول عنه : « والغالب على أحواله التواضع ، ولين
الجانب ، وخفض الجناح ، وحسن السيرة والطريقة ، مع التحرى
والنزاهة ⁽¹⁾ والعدل والاعتدال . »

ومن شيوخ ابن الأبار الذين أخذ عنهم الأخبار ورواية
الحديث والأدب الشيخ ⁽²⁾ محمد بن محمد بن سليمان بن محمد
ابن عبد العزيز الأنصارى النحوى من أهل بلنسية ، ويكنى
أبا عبد الله . وقد كان شديد العناية بالسمع والرواية مع الحظ

(1) توفى بمائة وهو على قضائها سحر ليلة السبت - وقال ابن الطيلسان
صبح يوم السبت - السادس من شهر ربيع الآخر سنة 621 ومولده فى
اندة سنة 552هـ . (2) صفحة 302 من الجزء الاول من تكملة الصلة . الترجمة
رقم 918 . واصله من سرقسطة .

الوافر من المعرفة والدراية . فكانه جمع بين النقل والعقل ،
والرواية والدراية . وهذا طراز جديد من علماء ابن الأبار لا
يعتمد على النقل فقط بل يعمل العقل أيضا . وهو يقول عنه انه
" يتحقق بعلم اللسان ، ويتقدم في العربية ، عاكما على اقراءها
والتعليم بها ، قائما على كتبها ، بصيرا بصناعة الحديث ، مكبا
عليها . قرأ وأقرأ (جمعا) كبيرا ، وافاد واستفاد كثيرا . أما
نصيب ابن الأبار من التتلمذ عليه فيقول فيه : " وقد نقلت من
خطه ما نسبته اليه في هذا الكتاب (يعنى تكملة الصلاة) ، واجاز
لي بلفظه . وسمعت منه بعض نظمه ، وبقرائه على شيخنا ابي
الخطاب بن واجب كثيرا . وكان شاعرا محمودا .

فكان ابن الأبار كان يتعلم ، الى حفظ القرآن بالقراءات
السبع ورواياتها ، الحديث والتاريخ والخبار والادب . كان يتعلم
هذا حتى قبل أن يجاوز من السن الخامسة عشرة . دليلنا على
ذلك ان استاذ محمد بن سليمان بن عبد العزيز الانصارى
الزحوى هذا توفي في ربيع الاول سنة 610 هـ ، أي عند ما بلغ
ابن الأبار نهاية الخامسة عشرة من سنه . وكان يتتلمذ

عليه قبل وفاته .

ولم يكتب ابن البار بقراءاته القرآن وأخذه رواياته بمن
ذكرنا من الاساتذة بل فعل كما يفعل غيره من التلامذة في عهده
من قراءة القرآن أو تلاوته على أكثر من شيخ . ومن هؤلاء
الذين أخذ عنهم قراءة القرآن وسمع منهم أبو عبد الله محمد (1)
ابن عبد العزيز بن سماعة . كان من أهل شاطبة ، ولكنه وفد
الى بلنسية في اول شوال سنة 610 . وكان ممن أخذ القراءات
عن أبي الحسن (2) بن هذيل ومن وسمع من أبي عبد
الله بن سماعة وأبي حفص بن واجب وهؤلاء من أئمة العلماء
في روايات القرآن وصناعة الحديث . ويقول عنه ابن البار :
فلما جاء الى بلنسية أخذت عنه ، وسمعت منه ، وأجاز لي ما

(1) صفحة 313-314 من الجزء الاول من التكملة، رقم الترجمة 938.

(2) هو علي بن محمد بن هذيل البلنسي . كان منقطع القرين في
الفضل والدين والورع وكان اذا خرج لضيافته تبعه الطلبة من قارى وسامع
للحديث . وهو آخر من حدث عن أبي داود بالاندلس انتفع الناس به
طويلا ورحلوا اليه . وسمع ببلنسية نيفا وستين سنة وتوفي عن نيف
وتسعين في رجب سنة 564 هـ. (صفحة 199 الديباج المذهب) .

رواه عند ذلك وقبله. وكان شيخنا ابو الخطاب بن واجب يشق به
ويشنى عليه، ويقول بفضله، وتقدم صحبته لابي الحسن بن هذيل،
وتميزه من الشيوخ. . وتوفي بشاطبة يوم الثلاثاء التاسع من
شوال سنة 614 عن سن عالية بلغت المائة، وهو يتمتع
بجوارحه كلها.

وممن اخذ عنهم ابن البار اللغة والنحو والاداب الشيخ
محمد بن ابراهيم بن مسلم البكري ويكنى ابا عبد الله .
وهو يقول عنه: انه من أهل بلنسية وقد «سمع من شيخنا ابي
عبد الله بن نوح قديما ولازمه . وأخذ عنه العربية والاداب ،
وأقرأ بها . وكان مقدما، حسن التعليم . وهو احد من أخذتها
عنه . قرأت عليه جملة من اول (1) الايضاح لابي علي الفارسي
وناولنيه مرارا، وكان من اهل الديانة والنراة والانقباض (2)،
وتوفي سنة 627 .

(1) هو كتاب في النحو الفه ابو علي الحسن بن علي بن عبد
الغفار الفارسي . وهو تلميذ ابن السراج وابن الزجاج امه عربية وأبوه فارسي
ولد سنة 288 (900م) ومات ببغداد سنة 377 (987م) ومن مؤلفاته التكملة .
(2) صفحة 337 من الجزء الاول من التكملة . الترجمة رقم 986

ولا يهمل ابن البار حين يترجم لاحد من شيوخه
ذكر صفاته الخلقية والدينية، لانها كانت جزءا من مكونات شخصية
العالم في ذلك الوقت، ومن العناصر الضرورية في العالم الفاضل
الصحيح، العناصر التي تجذب اليه الطلبة . وتكسب احترام
الناس وتقديرهم، ومن ذكره لهذه الصفات نعرف نحن نوع
الاساتذة الذين تتلمذ عليهم .

وثمة عالم لغوي، وكاتب أديب، وفقه محدث، وقاض
بارع، هو الشيخ (1) نذير بن وهب بن لب بن عبد الملك بن
أحمد بن محمد . . . بن نذير الفهري . ويكنى ابا عامر . وقد
أخذ القراءات (2) عن ابيه ابي العطاء، وسمع منه واكثر عنه،
ومن ابي بكر بن جنزى ومن . . . واخذ العربية والادب عن
ابي محمد بن عبدون . وكتب اليه من اهل المشرق جلة من العلماء
الافاضل . ويصفه ابن البار فيقول :

« وعنى بعقد (3) الشروط، فلم يكن احد يدانيه في ذلك

(1) صفحة 424-425 من الجزء الثاني من التكملة . رقم الترجمة 1217

(2) هذا يدل على انه كان من بيت علم . (3) كانت شروط البيع
والهبة والوصية والايجار والوقف الخ . تكتب وفقا لقواعد الشريعة الاسلامية =

حسن مأخذ، وسهولة الفاظ، وبراعة مساق، مع المشاركة في
الفقه، وكان قائما على الكامل للمبرد، كثيرا ما سمعته يورد اشعاره،
ويسرد من حفظه اخباره . وولى قضاء بعض الكور . وحدث
بآخرة من عمره، فأخذ عنه جماعة من اصحابنا (زملائنا في الدرس)
وسمعت منه كثيرا، وأجاز لي لفظا وخطا، هذه كانت صلة
ابن الابار بأستاذه. وواضح انه افاد منه في اللغة والادب أكثر
مما افاد في أبة مادة أخرى .

وقد بقي هذا الاستاذ ببلنسية حتى تغلب عليها الروم ،
فقصد دانية، وولى قضاءها الى ان توفي بها في العاشرة الوسط
لشعبان سنة 636 وابن الابار (1) حينئذ بتونس المدينة
عند توجيهه اليها .

وممن أخذ عنهم الاخبار والتاريخ والاشعار (2) الشيخ ابو

= وكان يقوم بكتابتها عالم فقيه قدير في اللغة وعلوم الدين .

(1) يقول ابن الابار في هذا الشيخ وقد بقي قاضيا على دانية «الى
ان توفي بها في العشر الوسط لشعبان سنة 636 هـ . بعد ستة أشهر من
العادئة على بلنسية. وانا حينئذ في حضرة تونس في توجيهي اليها» اي
هند ما وجهه اليها الامير زيان ليستصرخ الامير زكريا الحفصي .

(2) صفحة 517 من الجزء الثاني من تكملة الصلة. الترجمة رقم 1453 .

محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن ابي يحيى بن محمد بن مطروح التجيبي . وكان من اهل بلنسية وأصله من سرقسطة . وهو من بيت علم وفضل وصلاح .

وقد تتلمذ هذا الشيخ على جملة من العلماء النابيين في عصره ، فأخذ القراءات عن ابيه وابي العطاء بن نذير وابي عبد الله بن نوح وسمع منهم ، وأخذ القراءات والعربية والاداب عن ابي محمد بن حوط الله وابي عبد الله بن نوح ولازمه طويلا ، وعن ابي ذر الحسني وغيرهم .

ولى القضاء في عدد من كور بلنسية وغيرها وولى قضاء دائية بأخرة من عمره . ثم صرف عنها بتولية ابن الابرار قضاءها في رمضان سنة 633 هـ وأعيد اليها بعد ذلك لما استعفى ابن الابرار من هذا المنصب .

ويقول عنه المترجم : « وكان فقيها عارفا بالاحكام ، عاكفا على عقد الشروط ، من أهل الشورى والفتيا - ادبيا - شاعرا مقدما ، فكها ، صدوقا في روايته . سمعت منه حكايات واخبارا وانشدني لنفسه ولغيره كثيرا . وأجاز لي غير مرة ، لفظا جميعا »

ما رواه ، وأنشأه .

هذا وقد توفي الشيخ عند المغرب من ليلة يوم الجمعة التاسع
لذي القعدة سنة 635 هـ . والروم محاصرون (1) بلنسية .

فهذا مصدر آخر من مصادر تأديب ابن الأبار و تثقيفه ،
وتنشئته في الاداب واللغة والكتابة . وكان هذا النوع من
التنشئة ضروريا لمن تولى بعد ذلك كتابة الرسائل لعدد من الملوك
فباتصاله بهذا الضرب من الادباء والشعراء ، ورواية الادب والظرفاء
استطاع ابن الأبار ان يتذوق الادب ، وينمى ملكته فيه .

والواقع ان ابن الأبار لم ينقطع عن التلمذة على خيرة
العلماء والادباء ، حتى فى سن الاربعين . يذكر هذا ويسجله
عند ما يترجم (2) الحسن بن محمد بن الحسن بن فاتح من اهل
بلنسية ، المكنى ابا على ، والمعروف بالشعار . وهو يقول
عنه انه اخذ القراءات السبع عن ابي السن بن النعمة ، وعن

(1) ويقول ابن الأبار: ودفن بمقبرة باب الحنش لصلاة ظهر الجمعة، قبل
امتناع الدفن بخارجها. (2) صفحة 23 من الجزء الاول من التكملة . رقم
الترجمة 54 . وتوفى يوم السبت يوم عيد الاضحى من سنة 635 . ودفن
بداخل المدينة .

ابى محمد أيوب بن غالب المكتب ، وسمع من ابى المطا بن
تذير صحيح البخارى ، ومن ابى عبد الله بن نوح كتاب السيرة
لابن اسحاق . ورحل حاجيا ، فادى الفريضة ، وانصرف
فاحترف التجارة . . . وقد لاقرأ القرآن بآخرة من عمره .
فأخذ عنه . وسمعت أنا منه فى منتصف رمضان سنة 635 هـ .
- اثر منازلة الروم بلنسية بعشرة ايام - حكايات واشعارا .
واجاز لى بلفظ ما رواه ، وهنا يجد القارىء كيف ان حرص
ابن البار على العلم وزيادة معارفه قد دفعه الى ان يجلس
لسماع الحكايات والاشعار ، ويطلب الاجازة من أستاذه ، فى
ساعة عصبية من ساعات بلنسية ، ساعة هجوم المدو عليها .

ومن شيوخ ابن البار ابو الحسن على بن محمد المخرومي
البلنسى ، ويعرف بابن حريق . وكان شاعرا مجيدا للوصف
والتهكم ومات سنة 622 . وقد ذكره ابن البار - عرضا -
على انه شيخه فى تحفة القادم . واقتبس منها المقرئ . وهو يروى
لنا فى نفح الطيب (1) عن ابن البار قوله :

(1) صفحة 458 من الجزء الثانى من نفح الطيب ، طبعة ليدن ، =

وما احسن قول شيخنا ابي الحسن بن حريق في هذا
المعنى (يريد وصف اسطول) من قصيد أنشدنيہ :

و كأنما سكن الارقم جوفها * من عهد نوح خشية الطوفان
فاذا رأين الماء يطفح نضنضت * من كل خرق حية بلسان
ولما كان ابن حريق شاعرا أديبا فمن الطبيعي ان يتلمذ عليه
ابن البار في مادة الادب والشعر ، ويحفظ عنه و يروى .

وفي مقدمة شيوخ ابن البار العلماء الصالحين المجاهدين
الحافظ ابو الربيع سليمان⁽¹⁾ بن موسى بن سالم بن حسان
الحميدى الكلاعى من اهل بلنسية . وهو شيخه الذى يعمل
له كل ولاء وحب وتقدير ، شيخه الذى لا يذكر اسمه الا
ويقرن به ، لما له من الفضل العلمى والاخلاقي عليه . وقد ترجمه
عدد من المؤرخين ومنهم ابن البار نفسه قال عنه : انه على اتم
العناية بالتقييد والرواية ، وكان اماما فى صناعة الحديث ،
بصيرابه ، حافظا حافلا ، عارفا بالجرح والتعديل ، ذا كرا

== ونشرة دوزى وآخرين ، انظر كذلك الجزء الاول صفحة 111 والجزء الثانى
صفحة 459 ، 999 .

(1) صفحة 708 من الجزء الثانى من تكملة الصلاة . الترجمة رقم 1991

للمواليد والوفيات ، وكتب الكثير ، وكان حسن الخط ،
 لانظيره في الاتقان والضبط ، مع الاستبحار في الادب ،
 والاشتهار بالبلاغة ، فردا في انشاء الرسائل ، مجيدا في
 النظم ، خطيبا فصيحيا ، مفوها مدركا ، حسن السرد والمناق
 لما يقوله . . وكان المتكلم عن الملوك في مجالسهم ، والمبين
 عنهم لما يريدونه على المناظر في المحافل . ولى خطابة بلنسية
 في اوقات . وله تصانيف مفيدة في الفنون ، وله كتاب
 الاكتفاء مما تضمنه من مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم .
 وتسانيف سوى ذلك كثيرة في الحديث والادب والخطب .
 واليه كانت الرحلة في عصره للاخذ عنه . اخذت عنه كثيرا ،
 وانتفعت به في الحديث كل الانتفاع . وحضنى على هذا
 التاريخ (التكملة) ، وامدنى من تقييداته وظرفه بما شحنته .
 مولده في رمضان سنة 565 . واستشهد بكائنة أنيسة على
 ثلاثة فراسخ من بلنسية مقبلا غير مدبر ، في العشرين من ذي
 الحجة سنة 624 هـ . وكان دائما يحدثنا ان السبعين منتهى عمره ،
 وقد رثاه تلميذه ابن البار بقصيدة طويلة منها !

أما باشلاء العلى والمكارم ❀ فقد باطراف القنا والصوارم
وهى طويلة كما رثاه غيره ومنهم الفقيه الكاتب⁽¹⁾ أبو المطرف
أحمد بن عبد الله بن عميرة المخزومي .

ونحن نجد فيما كتبه ابن الأبار اشارات عارضة لرجال
تتلمذ عليهم دون أن يترجم لهم فى تفصيل وتوسع . ففى
التكملة⁽²⁾ مثلاً نجده يترجم واجب بن محمد بن عمر بن محمد
ابن واجب بن عمر ويقول عنه : « سمع من أبى هذيل وابن
سعادة وابن النعمة . وولى القضاء باماكن . سمعت منه واجاز
لى . توفى سنة 610 هـ .

ونحن نشر عرضاً فى المعجم⁽³⁾ عند ترجمة « أحمد بن
محمد بن عبد الله الانصارى » انه روى عن جماعة منهم أبو
بكر بن العربى ، واجاز له أبو علي « ذكر ذلك أبو الخطاب
عمر بن الحسن الكلبى شيخنا » . فوصف أبى الخطاب هذا

(1) صفحة 586 من الجزء الثانى من نفح الطيب طبعة مصر (2) صفحة
719 من الجزء الثانى من تكملة الصلة . الترجمة رقم 2051 . ولاشك ان
واجب هذا المترجم له من أسرة واجب القيسية البنسية الشهيرة .
(3) صفحة 64 .

بكلمة « شيخنا » يدل على صلة ابن البار به صلة التلمذة . فاذا
بحسنا عن ترجمة هذا الشيخ وجدنا انه « عمر بن حسن بن
على بن محمد بن فرج الكلبى ابو الفضل ، الدانى الاصل السبتي ،
ثم كنى نفسه ابا الخطاب » وانه كان « بصيرا بالحديث معتنيا
بتقييده » مكبا على سماعه ، حسن الخط ، معروف بالضبط ،
له حظ وافر من اللغة ومشاركة فى العربية وسواها . ولى قضاء
دانية مرتين . . . » ثم رحل الى تونس وحدث فيها سنة 595 .
ثم حج وكتب بالمشرق عن جماعة باصبيهان ونيسابور . وعاد
الى مصر فاستأذنه الملك العادل لابنه وولى عهد محمد - الذى صار
بعد ، الملك الكامل - واسكنه القاهرة . . . وله تواليف منها كتاب
« النص المبين فى المفاضلة بين اهل صفيين » كتب الى بالاجازة
سنة ثلاث عشرة وستمائة ، ومات فى ربيع⁽¹⁾ الاول سنة 633 هـ ،
فهذا نص صريح على صلة ابن البار العلمية به ، وهى صلة
لا تدل على انه تتلمذ عليه مباشرة ، وان كانها تدل على انه قرأ
مؤلفاته واستجازها فى روايتها فاجازه .

(1) صفحة 660 من الجزء الاول من تحفة الصلة .

ومن الشيوخ الذين تأثر بهم ابن الأبار علما وخلفا الشيخ
الزاهد (1) محمد بن عبد الله بن محمد بن خلف بن علي بن قاسم
الانصارى . وكان من اهل بالنسية ، ومن بيت علم وفضل .
سمع من ابي العطا بن نذير ، وابي عبد الله بن نوح ،
واخذ عنه القراءات والعربية والآداب ، ولازمه واختص به ايضا .
وسمع من ابي الخطاب بن واجب . وعنى بعقد الشروط ، ثم
رغب عن ذلك وزهد في الدنيا ، واعتزل الناس ، وأقبل على
النظر في العلم . وكان له تحقيق بالتفسير وقيام عليه .
وقعد لذلك بجامع بالنسية .

وكان هذا الشيخ يعلم في منزله كمادة كثير من الشيوخ في
بلاد المسلمين . ظلت هذه المادة متبعة حتى اشرفت الحكومات
على التعليم ، فخصصت له معاهد غير بيوت الاساتذة . ولا زالت
هذه المادة متبعة في غير مدارس الحكومة بالمغرب ، والسودان
ونيجيريا ، وفارس ، والحجاز . يذهب الطالب الى الشيخ في منزله
لتلقى العلم . وفي هذا تكريم للشيخ وراحة له وبخاصة اذا كان

(1) صفحة 354-355 من الجزء الاول من تكملة الصلاة ، رقم الترجمة 1021

مسننا . نعم كانت المساجد معاهد العلم ، وليكن بعض الشيوخ كانوا يؤثرون منازلهم لما فيها من ضمان عدم التعارض بين وقت العلم وصلاة الناس ، وكان معامو القرآن يتخذون من منازلهم مكانا لتعليمه ، او حجرة متصلة بالمسجد ، صيانة لمكان العبادة أن يتسخ باستعمال الاطفال اياه . ومن الشيوخ من يتخذ خلوته في منزله فكان يؤثر لهذا ان يكون تلاميذه على قرب منه ، يشرف عليهم اذا فرغ من خلوته ، وينصرف اليها اذا فرغ منهم ⁽¹⁾ او اذا شاء . ويقول ابن البار عن استاذة هذا انه : اخذ عنه القراءات بمنزله جماعة . وطريقة التصوف كانت اغلب عليه . والف كتاب نسيم الصبا ، في الوعظ على طريقة ابن الجوزي . قرأ علي بلفظه ، واضع منه ، وكتاب : بغية النفوس الذكية في الخطب الوعظية ، من انشائه . كتبه عنه . وسمعت منه غير ذلك ، وأجاز لي . وصحبته طويلا . وكان يحدثني باصطحابه مع ابي - رحمه الله - في السماع من أبي عبد الله بن نوح ، ويرعى ذلك لي . وقد سمع بقراءتي كثيرا مما أخذت بجامع

(1) انظر كتاب التربية في السودان للمؤلف ، باب «الخلوة ووظيفتها»

بلنسية بين العشائين - لضوء السراج - عن ابي الخطاب احمد
ابن واجب بجامع الترمذى وغيره . « والمشاءان المغرب والعشاء .
وهذا الشيخ ضرب من العلماء الصالحين الذين غلبت
عليهم روح التقوى والزهد . ولا شك كان لهذه الروح أثرها
الخالق فى حياة المترجم . وكان من عطف هذا الشيخ على
تلميذه ابن البارانه كان ينظر اليه كأنه ابنه ، لانه زامل والده
أثناء السماع من ابي عبد الله بن نوح .

ومن الشيوخ الذين افاد منهم ابن البار ، وارتبط بهم
برباط الماهرة الشيخ « حسن بن حسن بن احمد بن محمد بن
موسى بن سعيد بن سعود الانصارى . . ويعرف بابن الوزير
وغلبت عليه الشهرة بابن البطرنى . ويكنى ابا عبد الله ،
ويقول عنه ابن البار : « انه كان عالما بالقراءات ، وعنى بمقد
الشروط . وكان له فيها نفوذ ، وبها معرفة ، مع براعة الخط ،
وحسن الوراثة . وولى قضاء بعض الكور . وشارك فى الكتابة ،
سمعت منه المعجم فى مشيخة ابي علي الصدفى للقاضى ابي
الفضل بن عياض . قرأ جميعه علي بلفظه ، وسوى ذلك .

وانتقل معي - وكان صهرى - الى مدينة تونس . وبها توفي
بين صلاتي الظهر والعصر من يوم الاربعاء الرابع لشهر ربيع
الآخر سنة 637 . . . ومولده ببلنسية سنة 573 هـ .

ومن الحق ان نقرر هنا اننا لانستطيع ان نستقصى جميع
الشيوخ الذين تتلمذ عليهم ابن البار ، ومن اجازوه كتابة
او لفظا ، ذلك لانه لم يذكر لنا هو جميع مشيخته نصافي (1)
مؤلفاته ، أو لعله ذكرهم فيما لم نعر عليه منها . وكل من
ذكرناهم هنا تلمسناهم من مؤلفاته عند ما ترجم حياتهم عرضا
كترجمة حيوات غيرهم من الشيوخ العلماء . او مما ذكره
المؤرخون عنه . وثمة اساندة آخرون نشر عليهم مصادفة ولا
نجد اهم ذكرا كثيرا . ومن هؤلاء حسان بن عبد الله بن محمد بن
هشام بن عبد الله بن حيان بن فرحون بن حيان الانصارى

(1) من ذلك انه ذكر عرضا شيخين تتلمذ عليهما وهما : محمد بن احمد
ابن عطية بن موسى بن عبد العزيز الانصارى ، ذكره في صفحة 332 من
المعجم ورقم الترجمة 974 ، ومحمد بن احمد بن محمد بن اسماعيل بن
سلمون بن اهل بلنسية ، ذكره في صفحة 333 من المعجم ورقم
الترجمة 976 .

الأوسى من أهل بلنسية . وعن حياته يقول ابن الأبار :
« وقد أقرأ وقتاً بجامع بلنسية . نصيبه لذلك القاضي أبو
عبد الله بن حميد . لقيته وسمعت مذاكرته وتوفي سنة 609 » .
والغالب أن هذا اللقاء وهذا السماع لم يكن طويلاً ، ولم
يكن على سبيل التلمذة ، وإنما كان مرة أو مرات معدودة ،
كما كانت الحال من حضور الرجل محاضرة غيره من العلماء ،
وجلسه في حلقة تلامذتهم ، حتى ولو كان المستمع عالماً .
وممن ذكرهم ابن الأبار عرضاً ضمن شيوخه ولم أشر على
ترجمتهم الشيخ أبو محمد بن غليون . ذكره عند ترجمته الشيخ
محمد بن حرث بن محمد ابن فيره بن حيون بن سكرة الصدفى من
أسرة أبى على الصدفى وتلامذته (1) فقد قال عن هذا المترجم :
« وكان شيخنا أبو محمد بن غليون يشنى عليه ، ويصفه بالصلاح
والخير ، والاكباب على تلاوة القرآن . حدثت بذلك عنه »
فعبارة « شيخنا » و « حدثت بذلك عنه » تدل على
اتلمذ ابن الأبار على ابن غليون .

(1) صفحة 222-223 من الجزء الأول من التكملة رقم الترجمة 743

وبعد، فالدارس لتراجم هؤلاء الشيوخ - شيوخ ابن البار -
يجد انهم جميعا ممن عاشوا في فلسفة اثناء تلمذته عليهم .
ونحن لا يسعنا الا ان نستنبط من هذا ان ابن البار تلقى علومه
ودراساته جميعها في فلسفة وعلى شيوخها ، وانه لم يرتحل
الى بلدة غيرها طلبا للعلم كما كانت العادة في ذلك الوقت . ولا
ينقص هذا من قدره العلمى ، وانما اردنا تسجيل هذه الحقيقة
التاريخية المستنبطة ليكون القارىء صورة واضحة عن المترجم .
نعم نثر في فوات الوفيات - عند ترجمته - على عبارة:
« وجال في الاندلس » ، مما قد يوهم ان هذا الجولان كان طلبا
للعلم . ولكنها عبارة لا تكفى كما وردت لاستنباط هذه النتيجة ،
كما اننا لانعثر في مصادر اخرى على ما يؤيدها .

بهذا النوع من التربية التى وصفناها، وبهذه التنشئة على
الرجال العلماء الفضلاء العالحين تهيأ ابن البار لحياة علمية
تناسب ثقافته وتكوينه ، واستحق ان يقال عنه انه « عنى
بالحديث . . . وكان بصيرا بالرجال » ، عالما بالتاريخ ،
اماما فى العربية ، فقيها ، مفتيا ، اخباريا ، فصيحاً ، له يد فى

البلاغة (1) والانشاء .

فاذا انتقلنا الى حياته العملية صعب علينا ان نحدد تحديدا دقيقا السنة التى بدأ فيها يزاوّل عملا من الاعمال الرسمية ذات الوظيفة ، الكتابة أو القضاء . وكل من كتب عنه من المؤرخين ووفى التراجم يقول انه كتب عن السيد أبى عبد الله بن أبى حفص الموحدي، وعن ابنه السيد أبى زيد بعده ثم عن الرئيس أبى جميل زيان بن مدافع، فلما سقطت بلنسية هاجر الى تونس ولقى حظوة لدى سلطانها الى ان اقل نجمه كما سنعرض لهذا بامضاح . ولكننا لا نستطيع ان نقول متى بدأ ابن البار بعمل كاتبا عند السيد (2) أبى عبد الله الموحدي . نعم نعرف أن هذا السيد ولى امارّة بلنسية فى سنة 582 هـ . بعد وفاة الرئيس أبى الحجاج يوسف بن مردنيش، غير ان ابن البار لم يكن قد ولد فى تلك السنة . ونعرف كذلك ان السيد أبى زيد قد خرج من بلنسية وأوى الى المنصاري فى سنة 626 هـ . وإذا فلا بد ان

(1) صفحة 226 من الجزء الثانى من فوات الوفيات .

(2) لقر «السيد» يطلق على امرأ الموحدين أما امرأ بنى حفص فيطلق عليهم لقب « الشيخ » .

تكون كتابة ابن البار لهذين الواليين الموحدين قبل سنة 626 هـ .
وفي سن تسمح له بمزاولة هذه المهنة لدى الامراء فاذا فرضنا
سنة 615 هـ . باعتبارها السنة الجائزة نظريا لبدء ابن البار
حياته الكتابية الديوانية ، كان هذا الفرض مبنيا على ان عمره في
تلك السنة كان قد صار عشرين عاما ، وهو عمر يمثل بدء التضخ
الاجتماعي والعلمي . ومن الجائز ان يكون قد بدأ هذه الحياة
الادبية الرسمية بعد تلك السنة ، ويمكن في عهد الامير
أبي عبد الله بن ابي حفص .

ومهما كانت السنة التي بدأ فيها يكتب لاول هذين
الاميرين الموحدين فليست لدينا صورة مخطوطة من الرسائل
التي كتبها عنهما ، وكل ما ورد في كتب التاريخ ان ابن البار
لازم مولاه السيد ابا زيد ، ثم دخل معه دار الحرب حين نزع
الى دين ⁽¹⁾ النصرانية ، ورجع عنه قبل ان ياخذ به . وليس المجال
هنا مجال مناقشة نزوع السيد ابي زيد الى النصرانية ، واعتناق
هذا الدين او عدم اعتناقه . فليست لدينا اداة كافية مرجحة في

(1) صفحة 205 وما بعدها من الجزء الثالث من أزهار الرياض .

هذا الشأن (1) ، ولكن من الواضح ان ابن الابار ترك مولاه ورجع الى بلنسية. فهل عمل ابن الابار بعد عودته مباشرة عند الوالى الجديد ابى جميل زيان بن مدافع بن مردنيش ، وكتب له ، او مضت مدة قبل ان يصير كاتبه ؟ هذا سؤال لا نستطيع الاجابة عنه. نعم من الثابت ان ابا جميل زيان بن مدافع ولى امر بلنسية من سنة 626 هـ. الى ان سقطت في يد الروم سنة 636 هـ ، ولكن من الثابت ايضا ان ابن الابار ولى قضاء دانية في عهد هذا الرئيس أبى جميل . فقد ذكر لنا ابن الابار عرضا عند ترجمته (2) عبد الله بن محمد بن عبد الله بن ابى يحيى بن محمد بن مطروح التجيبى من اهل بلنسية انه ولى « بآخرة من عمره قضاء دانية . ثم صرف بى عند ما قلدت ذلك فى شهر رمضان سنة 633 هـ . ثم أعيد إليها بعد ذلك لما استعفيت منه » . فهذه عبارة صريحة فى ان ابن الابار ولى القضاء فى عهد الرئيس

(1) يقول ابن الخطيب فى كتابه « اعمال الاعلام » صفحة 313: ان السيد ابا زيد بن عبد الرحمن بن يعقوب والى بلنسية خرج منها واعتصم ببعض معاقلها ليكون اقدر على ضبط أمره ، فامتنعت عليه المدينة ، والجاء الاضطراب الى اللحاق بصاحب ارغون . (2) صفحة 517 من الجزء الثانى من التكملة ، الترجمة رقم 1453 .

أبى جميل زيان بن مدافع، فهل كان قبل هذه التولية يعمل
كاتباً عند هذا الرئيس أولاً؟ هذا سؤال لا نستطيع الإجابة عنه
كذلك. ولكننا واثقون أنه صار كاتباً للرئيس أبى جميل بعد
استعفائه من القضاء. وقد ظل عنده إلى أن سقطت بالمنية.
ولا بد أن وصل ابن البار عند الرئيس زيان بن مدافع مرتبة
الحظوة والتقدير الرفيع والثقة بكفايته الأدبية لدرجة جعلته
يبحث به رئيساً للجماعة التي أوفدها ابن مدافع من بالمنية لبيعة
الأمير أبى زكريا يحيى سلطان أفريقية، واستصراخه لانتقاد
المدينة من خطر الروم.

ولعله يجدر بنا قبل أن نصف سفارة ابن البار إلى أمير أفريقية
الحفصى أن نذكر أن دولة الموحدين في ذلك الوقت كانت قد
آلت إلى الضعف والانهيار التدريجي، وأن نفوذها في الأندلس
كان قد صار إلى تقلص⁽¹⁾ على حين أخذت دولة بني حفص في
الظهور والقوة، ويقول لنا مؤلف «الحلل الموشية» في ذكر

(1) كان أمراء الأندلس المحليون يحاربون أمراء الأندلس من

الموحدين ويقاومون نفوذهم. فكان بين الطائفتين تنافس وحرب وعدم تعاون.

الاخبار المراكشية ، عند ترجمته الخليفة ابا محمد عبد الله العادل
ابن يعقوب المنصور الموحدى (621 - 624 هـ) انه كان عالما
اديبا فصيحاً ذا رأى وحزم ، « الا ان دولته كانت مزاحمة بابى
زكريا يحيى بن الناصر . فلم يتأت له معه (1) تمهيد البتة ،
واذاً فلم تكن ثمة فائدة من الاستصراخ بالموحدين .
ويقول ابن خلدون انه (2) « لما استقل ابو جميل زيان بن
ابى الحملات مدافع بن ابى الحجاج بن سعد بن مردنيس بملك
بلنسية ، وغلب عليها السيد ابو زيد بن ابى حفص ، وذلك عند
خمود ريع بنى عبد المؤمن بالاندلس ، وخروج ابن هود ، وثورة
ابن الاحمر بأرجونه ، واضطراب الاندلس بالفتنة ، وقد أسف
الطاغية الى تغور الاندلس من كل جانب ، وزحف ملك أرغون
الى بلنسية فحاصرها ، كانت للعدو سنة ثلاث وثلاثين (وستمائة
هجريّة) سبع محلات لحصار المسلمين ثم تملك طاغية
فشتالة مدينة قرطبة ، وظفر طاغية أرغون بكثير من حصون

(1) صفحة 136 من الكتاب المذكور . (2) صفحة 283 من الجزء

السادس من تاريخ ابن خلدون .

بلنسية ... وبنى حصن أنيشه لحصار بلنسية، وانزل بها عسكره،
وانصرف . فاعتزم زيان ابن مردنيس على غزو من بقى من
عسكره ، وانتفر أهل شاطبة وشقر، وزحف اليهم . فانكشف
المسلمون ، وأصيب أكثرهم ، واستشهد أبو الربيع بن سالم
شيخ المحدثين بالاندلس . وكان يوما عظيما ، وعنوانا على
أخذ بلنسية . ثم ترددت عليها سرايا العدو . ثم زحف اليها
طائفة ارغوث في رمضان سنة خمس وثلاثين . فحاصرها ،
واستبغ في نكايتها . وكان بنو عبد المؤمن بمراكش قد فشل
ربيعهم ، وظهر أمر بنى حفص بافريقية . فأهل ابن مردنيس
وأهل شرق الاندلس الامير أبا زكريا للكرة . وبعثوا اليه
بيعتهم . وأوفد عليه ابن مردنيس كاتبه الفقيه أبا عبد الله بن
الابار صريخا، فوفد (1) وأدى بيعتهم في يوم مشهود بالحضرة
(يعنى تونس) وأنشد في الحفل قصيدته السينية يستعصره
فيها للمسلمين ... الخ .

(1) فى سلخ شعبان سنة 635 (انظر صفحة 28 من الجزء الاول من
التكملة) .

فبادر السلطان ابو زكريا باغاثتهم ، وشحن الاساطيل
 بالمدد اليهم ، من المال والاقوات والكساء . فوجدهم في عسرة
 الحصار الى ان تغلب الطاغية على ⁽¹⁾ بالنسية ، ويسمى مؤرخو العرب
 هذا الطاغية جاثم ⁽²⁾ أو جاثمه وهو « *Jaime d' Aragon* » .
 ويسميه لسان الدين بن الخطيب « دون جايماش » .
 ويحدثنا ابن الأبار في الحلة ⁽³⁾ السيرة عن بالنسية فيقول :
 « ثم ملكها الروم ثانية بعد ان حاصرها الطاغية جاثم البرشلونى
 من يوم الخميس الخامس من شهر رمضان سنة 635 الى يوم
 الثلاثاء السابع عشر من صفر سنة 636 وفى هذا العام خرج
 أبو جميل زيان بن مدافع بن يوسف بن سعد البجذامى من
 المدينة ، وهو يومئذ اميرها - فى اهل بيته ، ووجوه الطلبة
 والبند - واقبل الطاغية وقد تريا باحسن زى ، فى عظماء قومه ،

(1) صفحة 205 من الجزء الثالث من ازهار الرياض فى أخبار عياض .

(2) هو *Jacques 1er le conquérant* حياته من 1213 - 1276م

انظر صفحة 390 من اعمال الاعلام .

(3) صفحة 190 من كتاب - *Notices Sur quelque Manuscrits*

Arabes وهو الذى ألفه دوزى ونشر فيه جزءا من الحلة السيرة .

من حيث نزل بالرصافة اول هذه المنازاة . فتلاقيا بالواجبة ،
واتفقا على ان يتسلم الطاغية البلد سلما لعشرين يوما ، ينتقل
اهله اثناءها بأموالهم وأسبابهم . وحضرت ذلك كله . وتوليت
العقد عن ابي جميل في ذلك . وابتدى بضعفة الناس فسيروا
في البحر الى نواحي دانية . واتصل انتقال سائرهم براً وبحراً .
وصبيحة يوم الجمعة السابع والعشرين من صفر المذكور كان
خروج ابي جميل بأهله من القصر في طائفة يسيرة اقامت
معه . وعند ذلك استولى عليها الروم .

فهذا وصف تاريخي لخروج بلنسية من حوزة المسلمين
الى حوزة الروم . ولم تستطع أساطيل ابي زكريا سلطان افريقية
انقاذها لانها وصلت متأخرة ولان قوة الروم كانت اكثر تفوقا
من قوة المسلمين .

ويقول لسان الدين بن الخطيب عند ذكر استصراخ
مسلمى بلنسية الامير ابا زكريا : « ولم يصل جوابه وامداده
الا والطاغية قد نازل بلنسية . وذلك يوم الخميس خامس
رمضان من سنة 635 . وواصل جاتمه ملك ارغون منازاة بلنسية

ورمبها بالمجانيق ، وشدة القتال . وما زال المسلمون تنقص
أعدادهم ، والنصارى تتوارد أمدادهم ، الى ان نفذت الاقوات ؛
واستولى الجوع ، وضعفت القوى ، وأكلت الجلود والرقوق ،
وبلغ الكتاب (1) أجله .

وفى ذلك يقول القاضى ابو المطرف بن عميرة مخاطباً
ابن الإبار (2) :

ما بال دمعك لا ينسى مدراره	أم ما لقلبك لا يقر قراره
ألوعة بين الضامع لظاعن	سارت ركائبه ، وشطت داره
أم للشباب تقاذفت أوطانه	بعد الدنو ، وأخلفت أوطانه
أم للزمان أنى بخطب فادح	من مثل حادثه خات أعصاره
بحر من الاشجان عب عبابه	وارتج ما بين الحشا زخاره
فى كل قلب منه وجد عنده	اسف طويل ليس تخبو ناره
أما بلنسية فمشوى كافر	حفت به فى عقرها مكفاره
زرع من المكروه حل حصاده	بين المداة غداة اح حصاره

(1) صفحة 318 - 314 من أعمال الاعلام

(2) يقصد به محمد بن الإبار

وعزيمة الشرك جميع بالهدى
قل كيف تثبت بعد تمزيق العدى
ما كان ذاك المصر الا جنة
طابت بطيب نهاره آماله
وتالفت اوقاته وتفسحت
اما السرار فقد عداه، وهل سوى
قد كان يشرق بالهداية ليله
ودجا به ليل الخطوب فصبحه
ايه ابا (1) عبد الآله وانته
عاطيتنى ذكر الجلاء، وانه
وقد حث زائد أسى له بين الحشا
واقدم نطق بمقتضى الرد الذى
ولم يكن لابن البار ان يبقى فى بلنسية بعد هذه الفجيرة
وققدان الوطن والمال والاصدقاء والابن . ولم يكن له ان يبقى

(1) لامي المطرف عدد من الرسائل النثرية التى يندب فيها سقوط

بلنسية.

في اى مكان اخر بالاندلس وقد كان يشعر بأن المدائن الاخرى
ستصير الى ما صارت اليه بلنسية . لهذا قرر الجلاء الى العدو
الافريقية . ويقول ابن خلدون انه هاجر الى تونس حضرة
افريقية على حين يقول الغبريني انه ذهب من الاندلس الى
بجاية اولا وعلم فيها ودرس ثم انتقل منها الى تونس . وانا
أؤيد (1) رأى ابن خلدون .

انتقل ابن الابار باهله الى تونس غبطة منه باقبال السلطان
عليه . فتمزل منها بخير مكان ، ورشحه لكتب علامته (2) في
صدور رسائله ومكتوباته . فكتبها مدة .

ثم ان السلطان ابا زكريا يحيى اراد صرفها لابي العباس

(1) دليلى على ذلك ما ورد في صفحة 425 من الجزء الثاني من
التكملة . فقد ترجم ابن الابار نذير بن وهب بن لب ... الفهرى (رقم
1217) وقال في آخر الترجمة : « ولما تغلب الروم على بلنسية قصد دافية ،
وولى قضائها الى ان توفى بها في العشر الوسط لشعبان سنة 636 بعد
سنة أشهر من الحادثة على بلنسية ، وأنا حينئذ بحضرة تونس في توجهي
اليها » فقد كان ابن الابار اذاً في تونس بعد ستة اشهر من سقوط بلنسية
فلو كان قد ذهب الى بجاية واستقر بها للتدريس لما كان معقولا أن
يصير بتونس بعد ستة اشهر من مغادرة الاندلس .

(2) كانت علامة السلطان المستنصر بالله عبارة « الحمد لله والشكر لله »

الغساني ، لانه كان يحسن كتابتها بالخط المشرقي . وكان أثر
عنده من الخط المغربي . فسخط ابن الابار أنفة من ايشار غيره
عليه . وافات على السلطان بوضعها في كتاب امر بانشائه
- عند ما كانت كتابة الرسائل في تونس مقصورة عليه - وان
يبقى مكان العلامة في الكتاب شاغرا ليكتبها ابو العباس
الغساني ، فجاهر بالرد ، ووضعها استبداداً منه وأنفة . وعوتب
على ذلك ، فاستشاط غضباً ، ورمى بالقلم ، وانشد :

اطلب العز في لظى وذو الداء لو كان في جنان الخلود
فمضى ذلك الى السلطان ، فامر بلزومه (1) بيته .

ولما كانت ولاية السلطان يحيى ابي زكريا تنتهي في
سنة 647 هـ (1249 م) وكان وصول ابن الابار الى تونس في
سنة 636 هـ كان لا بد ان يكون هذا الحادث قد وقع بين
هذين التاريخين ، وهنا يمكن القول بأن ابن الابار لما غضب
عليه السلطان ترك تونس وذهب الى بجاية حيث اقام مدة
بعيداً عن حضرة السلطنة ، يكتب ويؤلف ويدرس . ويؤيد

(1) صفحة 205 وما بعدها من الجزء الثالث من أزهار الرياض .

هذا الرأي ما ذكره ابن سعيد (1) في كتابه «المدح المذموم»
عند تعرضه لابن الأبار، وقصيدته السينية التي انشدها ابا
زكريا يحيى، وانها في جودتها وشهرتها شبيهة بقصيدة عمرو
بن كلثوم: الالهبي بصحنك فاصبحينا، فقد قال ابن سعيد: «الا
أن اخلاقه لم تمنه على الوفاء بأسباب الخدمة فقلصت عنه
تلك النعمة، وأخر عن تلك العناية، وارتحل الى بجاية.
وهو الان عاطل من الرتب، خال من حلى الادب، مشتغل
بالتصنيف في فنونه، متنفل منه بواجبه ومسئونه...» فهذا
النص صريح (2) على انتقال ابن الأبار الى بجاية بعد ان كان
في تونس، وعند ما غضب عليه السلطان.

نعم من الجائز ان يكون انتقال ابن الأبار الى بجاية في
عهد الأمير يحيى، ابي زكريا عند ما غضب عليه، وقد تمكن
ابن الأبار اثناء بعده في بجاية من ان يؤلف كتابه «اعتاب

(1) ولكنه مع ذلك لا يحدد التاريخ، وربما كان الانتقال في عهد
المستنصر بالله.

(2) اقتبس هذا المرقى في صفحة 205 من الجزء الثاني من نفع
الطيب طبعة أوربا.

الكتاب ، ومن الجائز ايضا ان يكون انتقال ابن البار الى
بجاية في عهد السلطان ابي عبد الله المستنصر بالله الذي امر
بقتله سنة 658 عند ما غضب عليه . فقد ورد ما يثبت ان ابن
البار كان مقيما في بجاية يدرس العلم وكتبه .. ومنها المعجم ..
في سنة 655 . ذكر ذلك أحد تلامذته علي بن محمد بن ابي
القاسم . . . التجيبي ، وكتبه بخطه في مخطوط المعجم في
أصحاب القاضي ابن أبي سكرة (1) الصدفي .

وليس ثمة ما يمنع أن يكون انتقال ابن البار الى بجاية
قد حدث مرتين احدهما في عهد ابي زكريا والثانية في
عهد ابنه المستنصر بالله فقد غضب عليه كلاهما .

وألف ابن البار كتابه « اعتبار الكتاب » ورفع
الى السلطان ابي زكريا ، واستشفع بابنه المستنصر بالله . فقبل
السلطان شفاعته ، وأقال عشرته وأعاد الى الكتابة .

ولما خاف السلطان المستنصر بالله أباه أبدا زكريا بعد موته
سنة 647 هـ رفع ابن البار الى حضور مجلسه ، مع من كانوا

(1) انظر صفحة 110 من هذا المؤلف تحت عنوان « 2 - من كتاب المعجم »

بعضرونه من اهل الاندلس ولكن حدث ما اغضب عليه
السلطان الذى شفع له عند والده ، والذى كان ولى نعمته .
والمؤرخين فى سبب هذا الغضب مذاهب ، فهم يقولون (1) :
انه كان بينه وبين الوزير ابي عبد الله بن ابي الحسين نفور
وحقد قديم ، سببه انه لما قدم ابن الابار من بلنسية نزل فى
بنزرت ، وخاطب ابن ابي الحسين بالغرض من قدومه الى
المدونة فى رسالة بعث بها اليه ، ووصف والد ابي عبد الله
هذا فى عنوان هذه الرسالة بسمت « المرحوم » فنبه الى ان
الوالد حي لم يمت : فضحك وقال : « ان ابا لا تعرف حياته
من موته لاب خامل » . فبلغت هذه العبارة ابا عبد الله بن ابي
الحسين . فاسرها فى نفسه ، وسمى به عند السلطان ، فامر
باشخاصه الى بجاية . ثم رضى عنه واستقدمه . ولمكن ابن
الابار عاد الى مساءة السلطان بنوعاته ، وحدث ان جرى فى
بعض الايام ذكر مولد الواثق ابن السلطان ، وتاريخه .
وسأل عنه السلطان بعض من حضره ، واراد ان يعرف طالع

(1) صفحة 206 - 207 من الجزء الثالث من أزهار الرياض .

هذا التاريخ ، فاستبهم . ولكن ابن الأبار جاء بالطالع وكان
طالع نحس ، فاتهم بتوقع المكروه للدولة والتربص بها ، كما
كان أعداؤه يشيعون عنه ، بما كان يعرف من التنجيم والمظرفي
النجوم . فاعرض عنه السلطان ، وبعث به الى داره . وامر ان
تجمع كتبه التي وجدت بهارقة فيها كما زعموا مقطوعة أولها :
طفما بتونس خالق سمويه ظاميا خليفة
فاستشاط السلطان لهذا ، وامر بامتحانه . ثم بقتله . فقتل قعصاً
بالرماح وسط المحرم سنة 658 هـ . ثم احرق شلوه . وسيقت
مجلدات كتبه واوراق سماعه ، ودوايينه ⁽¹⁾ فاحرقت معه .
ويبدو من الرواية السابقة ان بدء الخلاف كان بصرف
ابن الأبار عن كتابة علامة السلطان ، واسناد كتابتها الى ابي
العباس ⁽²⁾ الغساني .

هذا ما كان من غضب السلطان ابي زكريا

(1) هذه رواية أزهار الرياض صفحة 206 - 208 من الجزء الثالث

نقلا عن تاريخ ابن خلدون .

(2) هو أبو العباس أحمد الغساني كان أديبا وخطابا مجيدا وشاعرا

مرحبا . كان رئيس الكتاب عند سلطان افريقية . ويصفه ابن سعد في =

يحيى عليه . اما غضب ابنه السلطان المستنصر بالله فواضح أن المؤرخين ينسبون الى كاتبه - ووزيره - ابي عبد الله بن (1) ابي الحسين المؤامرة ضد ابن الابار ، ولا أريد ان أقلل من قيمة هذه الروايات التاريخية او أطمئن في صحتها اذ ليس لدي ما ينافيها ، ولا يمكنني أريد ان أفهم نفسية ابن الابار وأخلاقه لاستعين بذلك على فهم استجاباته للظروف الجديدة التي أحاطت به في افريقية ، والتي كان فيها حثفه .

== «المغرب» بقوله : « بماذا اصفه ولو ان النجوم تصير لى ثرا لما كنت أنصفه . وكفاك أنى اختبرت الفضلا من البحر المحيط الى حضرة القاهرة فما رأيت احسن ولا أفضل عشرة منه . ولما فارقتك لما أشعر الا برسالتك قد وافتنى بالاسكندرية من تونس . وفيها قصيدة فريدة منها :

ايه ابا الحسن استمع شدى فقد يصغى الحمام اذا الحمام ترنما
ومن شعره فى خسوف القمر :

كان البدر لما ان علاه خسوف لم يكن يعتاد غيره
سجنجل عادة قلبته لما اراها شبهها حسداً وغيره

(1) كان اولا كاتب الامير ابي زيد عبد الرحمن بن الشيخ ابي محمد بن ابي حفص ، لما كان والى افريقية فلما عزل وخلف الامير ابو زكريا عبد الواحد ابقاه فى عمله . غير ان السلطان ابا عبد الله المستنصر بالله صرفه عن الكتابة اولا واستوزر مكانه ابا عبد الله بن ابي يهدى الذى تآمر عليه بمعونة اخويه . فعزله السلطان واعاد ابا عبد الله الى مكانه (انظر صفحة 280 - 281 من الجزء السادس من تاريخ ابن خلدون) .

كانت سن ابن البار احدى واربعين سنة عند ما هاجر
باسرته الى تونس . وقد كان من قبل ، كتب عن ثلاثة أمراء ،
وتتقف في العاوم والعنون ، وبرع في رسائل الديوان ، ورأس
الوفد الذي بعث به الرئيس أبو جميل زيان الى سلطان
افريقية للمبايعة وطلب الانتقاذ . وإذا فقد كان ابن البار قد وصل
من المكانة العامة (1) والاجتماعية ما جعله يحس بتميزه ، وسمو
مركزه ، وتفوقه على نظرائه ممن اقيهم في افريقية .

وكان فقدان الاوطان والاهل ، والاصدقاء ، والمال ، والوسط
العامى والاجتماعى الرافى ، والمركز الممتاز فى بانسية صدمة عنيفة
على ابن البار وهو رجل جد وترومت ، نصيبه من المرح والدعابة
الطبيعية قليل ، فائر هذا كله فى مزاجه وخاقه وكون عنده
عقدة العظمة وعقدة الضمة معاً . اما عقدة العظمة فلشعوره
بامتيازهم وتفوقه فى الماضى والحاضر ، واما عقدة الضمة فللانه
وجد من اقرانه ومنافسيه من اكتسب بحسن السياسة ، ولطف

(1) يصفه مؤلف فوات الوفيات بأنه « حان ذا رياسة وافهة . وأبهة

وتجل وافر »

الدعابة ، وجميل الحياة ، عطف السلطان وتأييده ، وبدأ ابن
الابار يتذمر من تلك الظروف الجديدة والحياة الجديدة التي
كان يرجو فيها ان يكون رئيسا نافذ الكلمة ، محترم الرأي ،
قلبه على امره آخرون امثال الوزير الكاتب ابي عبد الله بن
ابي الحسين وابي العباس احمد الغساني . ونما عند ابن الابار
ضيق في العطن ، وانفة وكبرياء ، وتذمر ، وتحد ، مما نفر
الناس منه واكثر اعداءه ، وقلل اصدقائه . وربما يعذر ابن الابار
في تلك المرحلة من حياته بافريقية بعد ان امضى طفولته وشبابه
وكهولته في عز شامخ ، ومجد رفيع بالاندلس . فلم يكن هو وحده
المتذمر من تلك الحياة الجديدة . فلقد ورد في بعض الرسائل التي
كتبها غرناطي هاجر الى افريقيا ما ياتي :

« كتب الى الشيخ الفقيه المعظم الخطيب الفاضل القدوة
الصالح البقية ، والجملة الفاضلة النقية ، العدل الارضى ابو عبد
الله بن قطية ادام الله سموه ورقيه بما نصه :

الحمد لله جوابكم⁽¹⁾ يا سيدي رضى الله عنكم ، ومتع

(1) المعنى ما جوابكم وما فتواكم في مسألة وهي ... الخ ؟ وأخطأ
مبطلر حين جعلها ما سؤالكم ؟

أما سامعين بحياتكم ، في نازاة ، وهي ان قوماً من هؤلاء الاندلسيين
الذين هاجروا من الاندلس ، وتركوا هناك الدور و الارضين ،
والجذات والكرمات ، وغير ذلك من انواع الاصول ، وبذوا
زيادة على ذلك من ناص المال ، وخرجوا من تحت حكم
المة الكافرة ، وزعموا انهم فروا الى الله سبحانه باديانهم
وانفسهم واهليهم وذويهم ، وما بقى بايديهم ، او أيدي
بعضهم من الاموال ، واستقروا بحمد الله سبحانه بدار الاسلام
تحت طاعة الله ورسوله ، وحكم الذمة المسلمة ، ندموا على
الهجرة بعد وصولهم بدار الاسلام ، وتسخطوا . وزعموا انهم
وجدوا الحال عليهم ضيقة ، وانهم لم يجدوا بدار الاسلام التي
هي دار المغرب هذه .. صانها الله وحرس اوطانها ونصر
سلطانها .. بالنسبة الى التسبب في طلب انواع المعاش على
الجملة ، رفقا ولا يسرا . ولا مرتفقا ، ولا الى التصرف في الاقطار
امنا لا ثقا . وصرحوا في هذا المعنى بأنواع من فييح الكلام ،
الدال على ضعف دينهم ، وعدم صحة يقينهم في معتقدهم ،
وان هجرتهم لم تكن لله ورسوله كما زعموا ، وانما كانت

لدينا يصيبونها عاجلا عند وصولهم ، جارية على وفق اهوائهم
فلما لم يجدوها وفق اغراضهم مرحوا بدم دار الاسلام وشأنه ،
وشتم الذي كان السبب لهم في هذه الهجرة وسبه ، وبمدح
دار الكفر واهله ، والندم على مفارقتها . وربما حفظ عن
بعضهم انه قال على جهة الانكار للهجرة الى دار الاسلام التي
هي هذا الوطن . صانه الله . الى هاهنا يهاجر من هناك ؟
بل من هاهنا تهب الهجرة الى هناك . وعن آخر منهم ايضا
انه قال : ان جاز صاحب قشتالة الى هذه النواحي نسير اليه
فنتطلب منه ان يردنا الى هناك ، بمعنى دار الكفر . وعن بعضهم
ايضا انهم يرومون اعمال الحيلة في الرجوع الى دار الكفر ،
ومعاودة الدخول تحت الذمة الكافرة كيف امكنهم . فما الذي
يلتصم بهم في ذلك من الاتم وتقص رتبة الدين والبرحة ؟ وهل
هم به مرتكبون المعصية التي كانوا فروا منها ان تمادوا على
ذلك ولم يتوبوا ، ولم يرجعوا الى الله سبحانه منه ؟ وكيف
يتم يرجع منهم بعد الحصول في دار الاسلام ، والى الله .

(1) منحة (42 - 44) من الجزء الاول من مجلة : =

وانما سقت هذه الرسالة التي تتضمن شعور جماعة من المسلمين هاجروا من الاندلس الى المغرب ، لاوضح فقط ، كيف ان الحالة الجديدة التي صار اليها معظم هؤلاء المهاجرين لم تكن من الاسعاد لهم ، بحيث تعوض عليهم ما فقدوه في وطنهم الاول ، حتى لقد ذهب بعضهم الى التفكير في العودة الى دار الكفر . ومهما يكن رأى الاسلام في هؤلاء الناس فان ثمة حقيقة بارزة هي تدمير هؤلاء المهاجرين من نوع الحياة الجديدة وعدم ارتضاءها .

ولا أريد ان أدخل ابن البار ضمن هذه الطائفة ، ولكن أريد ان التمس له العذر عندما أجده وقد ضاق ذرعا بما جد في حياته بعد ما كان في رغد من العيش ، وعز من السلطان . وهو - كما قلت - رجل عصبي المزاج ، حساس .

لذلك لاغرابة ان ينريد في ابن البار بأوه ، وضيق خلقه ، عندما يجد ان من حوله من العلماء والامراء والسلاطين دونه

= Beiträge zur Geschichte der Westlichen Araber, herausgegeben von Marcus - Joseph Müller, 1866 .

في العلم والثقافة ، وهو دونهم في الجاه والمكانة . يؤيد هذا ما رواه المقرئ في ازهار الرياض ⁽¹⁾ بقوله : « وكان في ابن البار أنفة ، وبأو ، وضيق خلق . وكان ينرى على المستنصر في مباحثه . ويستنصر مداركه . فخشن له صدره ، مع ما كان يسخط به السلطان من تفضيل الاندلس وولائها عليه . » وليس بمستبعد على ابن البار ان يظهر تفضيله للاندلس وولائها ، وتعقيره لأفريقية وأمرائها ، بفعل ذلك بحسن نية ، أو نتيجة لتضايقه من الحالة التي هو فيها . وقد أدرك ولا شك قيمته العلمية وامتيازاه على نظرائه .

ويظهر ان ابن البار لم يكن في أفريقية حسن المخالطة ، لطيف المعاشرة متواضعا . لذلك نفر منه الزملاء والرؤساء . مع حاجتهم اليه . يؤيد هذا ما رواه المقرئ في نفح الطيب ⁽²⁾ : « من ان مالك تونس كان اذا أشكل عليه شيء ، أو ورد عليه لغز أو معنى أو مرقم بعث به اليه فيجابه . واذا حضر عنده لا يكلمه ،

(1) صفحة 206 من الجزء الثالث .

(2) صفحة 868 من الجزء الثاني طبعة أوربا .

ولا يلتفت اليه . ووجد في تعاليقه ما يشين دولة صاحب تونس .
وفي هذا المعنى يقول ابن الأبار نفسه :

أمري عجيب في الأمور بين التواري والظهور
مستعجب عند المغيب — وبومهل عند الحضور
ويظهر ان ابن الأبار كان عنيفاً في خصومته ، حاداً في
معاملته ، يقرص ويؤلم عند ما ينال خصمه بأهجاء او الإهانة ،
ثم يختفي كما يفعل الفار . ومن هذا جاء لقب « الفار »
الذي أطلقه عليه خصومه . وقعت بينه وبين أبي الحسن على
ابن شلبون المافري البلنسي مهاجاة قال فيها أبو الحسن :
لا تمجبوا لمضرة نالت جميع الناس صادرة عن الأبار
أوليس فاراً خلة⁽¹⁾ وخليفة و افار مجبول على الاضرار
وكان رد ابن الأبار عليه . بالرغم من قسوة الهجاء . محتشماً
أديباً :

قل لابن شلبون مقال تنزه غيري يجاريك الهجاء فجار

(1) هذه الإشارة تفيد ان شكل ابن الأبار - او خلقة وجهه - شبه
بشكل الفار . وكثيراً ما يطلق اللقب بناءً على الخلقة الجسمية .

«انا اقتسمنا خطيتنا بيننا فحملت برة واحتمات فجار» (1)
ولكن ابن البار ليس باول كاتب - او وزير - يدس عليه
عند سلطانه ، وينجح الدساسون في الايقاع به وتنتهى حياته
بالقتل ، والتشهير ، وحرق الكتب والمؤلفات التى كانت له
او عنده . ففى تاريخ البشر حوادث كثيرة من هذا الضرب .
لقد عاش ابن البار ثلاثا وستين سنة كان معظمها نكدا
وتغصصا عليه ، وقلقا واضطرابا ، وتدمرا وبلوى . ولكنه بالرغم
من كل هذا كتب والف وانتج ودرس وولى القضاء وقرض
الشعر ، وترك وراءه ، ذخيرة تاريخية وادبية قيمة . وقال
عنه ابن سعيدي فى المغرب : « حامل راية الاحسان ، والمشار اليه فى
هذا الاوان ... وهو حافظ متقن ، له فى الحديث والادب
تصانيف » .

لقد كانت وفاته خسارة على الادب والكتابة والتأليف ، كما
كان احراق كتبه التى ضاع بعضها فلم نعثر عليه قط (2) . ولعل

(1) هذا تضمين لبمت النابغة الذبياني .

(2) مثل كتاب التاريخ ، وكتاب هداية المعترف فى المؤلف والمختلف .

ابن البار سئم الحياة مع الناس ، ومضا يقتهم اياه ، وامتنانهم
عليه فقال :

رجوت الله في الألاء لما بلوت الناس من ساء ولاهى
فمن يك سائلا عنى فانى غنيت بالافتقار الى الاله